دكتور محمود حسن أبو ناجي

الشنفرى

شاعر الصحراء الأبي

دكتور محمود حسن أبو ناجي

الشنفرى

شاعر الصحراء الأبي

ردمك: ISBN : 978-9947-24-172-1
الايداع القانوني: 767-2007

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

سحب الطباعة الشعبية للجيش
الجزائر - 2007

بســـم ٱلله ٱلرحمـــن الرحيـم

مقـدمـــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى من سار على نهجه واقتدى بهداه وبعد :

لقد اخترت شاعرا ما كان ينبغي لي أن أختاره ؛ ذلك لأن سيرته مصبوغة بدم أحمر قان ؛ ولأنه تعسف في أخذ حقه تعسفا شديدا بعيدا عن حدود المعقول ، ثم لأنه استمرأ حياة القتل والإجرام . ولكن ما هو أبعد من القتل والتعسف هو الذي دفعني إلى اختيار الشنفري ، شاعرا من شعراء الصحراء الكبار ، الذي يصح أن يكون شعره معبرا عن حياة فئة من الشعراء لهم تفكيرهم وسلوكهم الخاص ، ثم لأنه كان مندمجا في حياة الصعاليك الذين شكلوا لهم طريقا جديدا فريدا في فهم الحياة العامة وفي التعبير عنها بوسائل شتى بأصدق الألفاظ وأدق المعاني .

فالشنفري صورة فريدة نلمس فيها حرارة العاطفة وصدق البيان وسمو الخيال وروعة التفكير المثالي في كثير من موضوعات الحياة الأخلاقية المثالية وموضوعات أخرى كالموت والفناء . ونلمس فيها أن هذا الشاعر الصعلوك كان أبيا شريفا لم يمدح أحدا قط رغبة ولم يهج أحدا رهبا ـ بل كان مترفعا عن مدح الناس بعكس شعراء الجاهلية الكبار كزهير والنابغة والأعشى وغيرهم والذين مدحوا أشراف وملوك مناذرة الحيرة والغساسنة صدقا أو كذبا . وهذا ما يجعلنا نؤكد صدق الشنفري والذي يشبه أمير الشعر الجاهلي امرأ القيس الذي لم يمدح أحدا رغبة في نواله وقد تدرع الشنفري بلباس الفخر والإباء والحماسة .

وبدراستنا للشنفري دراسة تحليلية تفصيلية نجد صورة صادقة للمجتمع الجاهلي القبلي من حيث علائقه الاجتماعية وكيف أن بعض الأعراف ، والتقاليد

كانت تدفع الكثير من أفراد المجتمع الجاهلي بالانضمام إلى مركبة ـ الصعاليك مكرها أو طائعا . وقد درست بعض الظواهر الأخرى كظاهرة جدب الصحراء وفقرها ونظرا لهذا فإن بعض الأفراد يشكلون عصابات للسلب والنهب ، ثم وجدنا أن البيئة الجغرافية كانت تساعد هؤلاء الصعاليك على الهرب والاختفاء عن عيون الناس وسلطانهم .

وقد قسمت بحثي هذا إلى تمهيد وخمسة فصول حيث بحثت في التمهيد أثر البيئة الثقافية والصحراوية على تفكيره وأخلاقه ـ أما الفصول فهي : ـ

الفصل الأول :

درست فيه حياته مولدا ونشأة ومقتلا وصلبا ، وأسرا واسترقاقا .

الفصل الثاني :

درست فيه العوامل المؤثرة في شعره وهي : ـ

١ ـ اتصاله بمشاهير الشعراء الصعاليك .
٢.ـ أثر النظام القبلي على حياته وتفكيره وأخلاقه .
٣ ـ أثر الفوارق الاقتصادية والحرمان على تشكيل نفسيته .
٤ ـ نبذة عن الصعلكة والصعاليك ومذهبهم الاقتصادي والاجتماعي في الحياة .
٥ ـ إعجاب بعض خلفاء بني أمية كمعاوية والوليد بن عبد الملك بكرم وسماحة الصعاليك .

الفصل الثالث :

تناولت في هذا الفصل موضوعات شعره وهي : ـ

الافتخار بشجاعته ـ الغزل العفيف (دراسة تحليلية موسعة)ـ التهديد ـ العدو ـ وصف حيوان الصحراء وصفا مفصلا دقيقا ـ الحكمة ـ الترفع ـ المراصد .

الفصل الرابع :

درست فيه الخصائص الفنية في شعره وهي : ـ

١ ـ التخلص من المقدمة الغزلية .
٢ ـ الانعتاق من الشخصية القبلية .
٣ ـ بروز الظاهرة القصصية .
٤ ـ الواقعية الشعرية في قصائده .
٥ ـ الوحدة المتكاملة .
٦ ـ المذهبية الشعرية .

الفصل الخامس :

دراسة فنية تتناول : ـ

١ ـ دراسة اللامية وتوثيقها وتحليلها تحليلا أدبيا تاريخيا أخلاقيا ومقارنتها ببعض النصوص الأخرى الشبيهة بها في موضوعها ثم بيان تأثيرها على بعض الأعاجم ومحاكاتها .

٢ ـ دراسة التائية والتي اتفق الرواة الثقات على أنها للشنفري ـ وبيان عناصر الجمال فيها وكيف أنها تعد البذرة الأولى لنوع الغزل العذري العفيف الذي ألفناه عند شعراء قبيلة عذرة كجميل وكثير ،مركزا في هذه الدراسة على عناصر الخيال والتعبير والأفكار والعاطفة .

وبعد :

فلعلي باختياري الشنفري شاعرا يمثل قيم الصحراء والاباء والعزة قد أبرزت صورة من صور المجتمع الجاهلي ومدى صدق هذا الصعلوك تعبيرا عن أحاسيس نفسه وأحزان أقرانه الآخرين الذين حرموا من عطف الأبوة أوعطف القبيلة فساحوا في الجزيرة العربية ـ المترامية الأطراف حيث شكلوا عصابات صعلوكية للقتل انطلاقا من أفكار خاصة ومذهب خاص في الحياة مغاير للمفاهيم السائدة وقد آثرت أن أتناول بالتفصيل اللامية العربية والتي يصح أن يطلق عليها لامية العرب لأنها

تعبر عن أحوال العرب في الجاهلية خير تعبير فكرا وتصورا وحياة وعيشا وفقرا وغنى وعزة وإباء ويكفي ان يقول فيها رسول الله ﷺ : « علموا أبناءكم لامية العرب فإن فيها القناعة والشجاعة » ـ وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق » .

ولو لم يكن للشنفري من فضل سوى هذه اللامية لكفاه فخرا ناهيك عن الكنز العظيم للألفاظ التي وردت فيها ووصف حيوان الصحراء وصفا لم يصل إليه إلا القليل من شعراء الجاهلية .

تمهيـــد

(١) بيئته الصحراوية وآثارها في خياله وتفكيره .
(٢) بيئته الثقافية واتصاله بأشهر شعراء الصعاليك (تأبط شرا يعتبر أستاذا له) .

أولا : بيئته الصحراوية

نشأ الشنفري في صحراء قاحلة ، اعتمد أهلها في حياتهم على الغزو للأماكن الخصبة حيث عانت الجزيرة العربية فقرا مدقعا نظرا لانعدام نزول المطر بانتظام ثم لهبوب الرياح الشديدة التي تفرض عليهم الانتقال باستمرار حتى إن البدوي ارتبطت حياته بالتنقل بحثا عن حياة أكثر رفاهية من الأماكن السالفة .

ويرى الدارسون للجزيرة العربية سابقا أن العوز والبدوي صاحبان ألف كل منهما صاحبه[١] .

كما يرى ابن خلدون (أن نكد العيش وشظف الأحوال وسوء الموطن التي اختص به أهل البدو أمور حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة)[٢] .

وعلى هذا فقد عاش سكان البادية عيشة كلها قسوة في تأمين ضروريات الحياة المعيشية إذ فرضت أن يكون البدوي مستعدا للغزو والنهب والإغارة على المناطق الخصبة كالعالية ويثرب وخيبر والطائف وكان من نتائج هذه البيئة القاسية أن خلقت من أبنائها رجالا أشداء أقوياء شجعانا فالصحراء كما يرى الدارسون تربي في نفوس أبنائها صفات الشجاعة والجرأة والكبرياء العنيدة ـ كبرياء الرجال الأحرار والصحراء العربية بالذات نظرا لما ذكرناه من ندرة الأمطار ولانعدام المصادر الأخرى للماء مثل العيون والأنهار ثم لاتساع مساحتها الشاسعة المترامية الأطراف حيث

---

(١) شعراء الصعاليك ص ٧٤

(٢) مقدمة ابن خلدون ـ الفصل التاسع من الباب الثاني .

جعلت العرب أشجع أجناس البشر قاطبة .

ويكفي دليلا على ما نزعم ـ النتائج الباهرة لظهور الإسلام في جزيرتهم واندفاعهم الذي لا حدود له في الفتوحات الإسلامية المذهلة وتدميرهم لامبراطوريات العالم القديم للفرس والروم ومصر والشام والعراق وبلاد السند والهندوقد كانت هذه الظروف القاسية سببا ودافعا قويا لظهور حركة الصعاليك الذين كانوا يثيرون القلق والاضطراب في حياة البادية إما طلبا للقوت والعيش مهما كانت دوافع ووسائل تحقيق هذا القوت سواء أكان نظاميا أو غير نظامي ـ وبجانب هذا العامل الصحراوي الفعال في حياة الشنفري فإن هناك عاملا آخر ساعد على زيادة شذوذ وتأثر الشنفري بالحركة الصعلوكية وهو العامل الاجتماعي القبلي ـ ذلك أن القبيلة كانت تخلع وتتخلى عن بعض أفرادها ؛ إما لأنه ارتكب جناية أو لأنه لم يلتزم بأوامر وتعليمات شيخ القبيلة وعلى ذلك يطرد هذا المذنب وينضم إلى جماعة الشذاذ والخلعاء والجناة والذين كانت تجمعهم روابط مشتركة منها أن المجتمع القبلي قد تخلى عنهم ـ ومن هؤلاء الخلعاء كذلك أولئك الذين فقدوا عائلهم أو وليهم وكان كل هؤلاء قد خرجوا على نظام وأعراف القبيلة ـ لذا فقدوا حمايتها ولم يتوجب لهم الحماية والأمن من قبل شيخ القبيلة ـ لهذا صح قولهم (في الجريرة تشترك العشيرة)[1] ـ إلا هؤلاء الصعاليك فإنهم قد خرجوا على هذا العرف وكونوا فيما بينهم رابطة أخرى غير الرابطة القبلية وهي رابطة يشترك كل أفرادها في تفكيرهم بها والتزامهم كذلك بمضمونها .

وقد اجتمع هؤلاء الشذاذ والفتاك والصعاليك في معزل عن قبائلهم يثيرون المشاكل العديدة من إغارة على القبائل الأخرى أو لقتل المارة في الطريق أو لسلب القوافل التي كانت تمر بهم في الصحراء بين جبالها وفي دروبها المترامية الأطراف .

ومن هؤلاء الصعاليك المشهورين في دنيا الصعلكة والذين صبغتهم الصحراء بالطابع الدموي العنيف : قيس بن الحدادية ـ إذ كانت فيه صفات القيادة فقاد مجموعة من الصعاليك والخلعاء في الغزو ـ وقد خلعته قبيلته وتبرأت منه لأنه

---

(١) مجمع الأمثال ٢/ ١٧

اشترك مع بعض أفراد أسرته وقتلوا أحد أفراد قبيلتهم ظلما وعدوانا .

ومنهم سيد الصعاليك وإمامهم وواضع أسس المذهب الصعلوكي وهو عروة بن الورد وهو يعد أبا للصعاليك وزعيما موجها لهم ، وقد عرف عن عروة الجانب الإنساني في المفهوم الصعلوكي[1] ومنهم كذلك تأبط شرا والذي يعد أستاذا وإماما لشاعرنا الشنفري ومنهم أبو الطمحان القيني والشنفري وعمرو بن براق والسليك بن السلكة والذي وصفه ابن قتيبة بأنه أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم[2] وغير هؤلاء كثير . وهذا الجانب الاجتماعي كان له أثر عظيم في استفحال خطر هؤلاء الصعاليك واشتداد خطرهم واضطرام نار الحقد في قلوبهم وتأجج نار العداوة والشنآن بين ضلوعهم ضد قبائلهم والناس جميعا لأنها تخلت عنهم ـ فتركتهم مهبا للظروف القاسية فانضموا طوعا وكرها لحركة الصعاليك الذين كانت لهم تقاليد وأعراف ومفاهيم خاصة في الفتك والقتل والنهب والسلب بغير وجه حق .

وبجانب ما ذكر من تأثير العامل الجغرافي والعامل الاجتماعي فهناك عامل ثالث لا يقل خطرا وتأثيرا عن سابقيه وهو العامل الاقتصادي . فقد كانت الهيئة الاجتماعية سكانا على فئتين فئة قليلة تملك الكثير وتستأثر به والغالبية لا تملك شيئا ولكن هذا حكم القدر أن يكون سكان الجزيرة على هذا النمط وقد نما الحقد والحاجة والعوز في قلوب هؤلاء الصعاليك ضد تلك الطبقة الغنية البخيلة أو الكريمة في آن معا .

وهناك عوامل عديدة ساعدت على أن يقوم الصعاليك بالغزو ـ من هذه العوامل مرور القوافل التجارية في وسط الصحراء وتربصهم بها في تهامة ويثرب والطائف وخيبر ثم عامل ثان ـ وجود الأسواق التي كانت مجمعا لهذه القوافل ومركزا لها في البيع والشراء . ثم عامل آخر : الفقر المدقع لهؤلاء الصعاليك واضطرارهم تحت جائحة الموت للغزو والقتل والنهب ـ وليس أمامهم خيار غير هذا . وربما كان هذا عذرا مقبولا لهم أو غير مقبول وكم كنا نرجو لو أن هؤلاء

---

(١) الأغاني ١٣/٢/ بولاق

(٢) الشعر والشعراء حـ١ ص ٣١٤

الصعاليك سلكوا سلوكا غير الذي عرفنا من القتل والسلب والإجرام ولو أنهم شكلوا عصابات خاصة بهم دون القتل والإجرام لقبلنا لهم عذرهم ولكن ما حجتهم في كثرة القتل للأبرياء والناس الذين لا جريرة لهم . وكان أمامهم وسائل عديدة لكسب لقمة العيش كالاغتراب والتجارة والرعي ولكن هذه الصحراء هي التي ساعدت على عدم استقرارهم ، وحبهم لديارهم مهما كانت هذه الظروف ضارية وقاسية .

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام

ثم إنهم كانوا يحرصون على كسب قوتهم بحد السيف وأسنة الرماح ثم عدم رغبتهم في الاستقرار في مناطق الخصب وحرصهم على التنقل من مكان لآخر .

ويحدثنا ابن قتيبة عن (فالكين التقيا فسارا حتى لقيا رجلا من كندة في تجارة أصابها من مسك وثياب وغير ذلك فتربصا به حتى قتلاه واقتسما ماله)[1] .

لذا كانت القوافل لا تسير إلا جماعات خوفا من هؤلاء الشذاذ وحماية لها من اعتداء الصعاليك .

وقد كانت ثروة الأغنياء في البادية محصورة في الابل والأغنام وقد ورد ذكر هذه الحيوانات في الشعر الجاهلي في حديثهم عن كرمهم واعتزازهم - باحتوائها وفي النقائض أنه كان لهم (نعم قد ملأ الأرض)[2]

(ونعم ملأ كل شيء) (ونسمع أن أشراف العرب في الجاهلية كانوا يدفعون آلافا من الإبل مقابل ديات القتلى)[3] .

هذا هو حال الأغنياء غنى وترفا وثراء ونعمة وسعة في العيش فما هو حال هؤلاء الفقراء الصعاليك المحرومين من أقل ضروريات الحياة ؟ لقد بلغ حال الفقراء من شظف العيش والسوء وتردي الحياة المعيشية حداً لا يطاق حتى وصل بهم الأمر أن قتل بعضهم أبناءهم خوف الجوع والاملاق وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذا الموضوع فقال محذرا من هذه الفعلة الشنعاء القاسية التي أهدرت فيها مكارم

---

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٨١

(٢) نقائض جرير والفرزدق ١/ ٢٣٤

(٣) نفس المصدر والأغاني ١٩/ ٨٥

الأخلاق وجففت مآقي الرحمة من قلوبهم . يقول الله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم »[1] وقد بلغ بهم الأمر ضيقا بالعيش وتبرما بالحياة إلى بيع أولادهم وقد افتخر الفرزدق بأن أحد أجداده كان يحيي المؤودات ويدفع مقابل ذلك إبلا وقد روى المبرد في الكامل (قصة عن صعصعة بن ناصية الذي كان يشتري المؤودات من آبائهن ثم يحيهن)[2] .

وبعد : فقد أثرت هذه العوامل الثلاثة وهي العامل الجغراقي الطبيعي والعامل الاجتماعي القبلي والعامل المعيشي الاقتصادي على تفكير ونشأة الصعاليك تأثيرا كبيرا إذ أوجدت بينهم وبين طبقة الأغنياء البخلاء صراعا دمويا عنيفا .

ثانيا : بيئة الشنفري الثقافية

عقب مقتل أبي الشنفري ارتحلت أم الشنفري مع أخ له أصغر إلى حي فهم ثم جاورت فيهم وقد تعرف الشنفري في فهم على صعلوك مشهور في عالم الصعاليك . إنه تأبط شرا الذي اتخذه الشنفري أستاذا له وقد وجد تأبط شرا في تلميذه الشنفري دلائل النبوغ والنباهة فتبناه ولقنه دروسا في الصعلكة وقد وجد فيه تلميذا شجاعا فاتكا ذكيا . وقد أورد هذه الرواية صاحب المفضليات وقد أرجع المفضل الضبي، صاحب كتاب المفضليات السبب لقتل الشنفري مائة من بني سلامان لأن بني سلامان قد قتلوا أباه فأقسم أن يقتل منهم مائة وهذه رواية المفضليات : (ويقال إنه كان سبب غزوة الشنفري إياهم وقتلهم أن رجلا منهم وثب على أبيه فقتله والشنفري صغير فلما رأت أم الشنفري أن ليس يطلب بدمه أحد ارتحلت به وبأخ له أصغر حتى جاورت في فهم فلم يزل فيهم حتى كبر الشنفري فجعلت تبدو منه عرامة وجعل يكره جانبه فوقع في نفس تأبط شرا وكان يكرمه ويدنيه)[3] وكان الشنفري يغير مع تأبط شرا حتى صار لا يقام لسبيله وكان أول شعر قاله وهو صغير بعد أن مات أخوه وهو غلام يفعة فخرجت أم الشنفري تولول عليه وتبكيه فقال الشنفري :

---

(١) الأنعام ١٥١

(٢) الكامل للمبرد ٢٧١ ـ ٢٧٩

(٣) المفضليات ط . بيروت ص ١٩٦

ليس لوالدة همها ولا قبلها لابنها دع دع
تطوف وتحذر أحواله وغيرك أملك بالمصرع[1]

ومن هنا نجد أن دعائم التربية الروحية للشنفري اعتمدت على تربية الصعلوك المشهور تأبط شرا في مرحلة المراهقة أو الطفولة وهي مرحلة لا شك أنها في الحياة خطيرة إذ أن الأصول تغرس بسهولة في نفسية الطفل - يقول الشاعر :

النفس كالطفل إن ترضعه شب على حب الرضاعة وإن تفطمه ينفطم

وتلقى الشنفري التدريبات العملية للصعلكة في الفروسية والفتك والسلب على يد أستاذه ومتبنيه تأبط شرا وقد شب الشنفري على نظم الشعر الفطري المطبوع المصبوغ بالدم . وكان شعره يحمل في طياته الثورة ، والعنف بحيث كان شعره معبرا عن نفسيته وآماله وحقده على قاتلي أبيه حتى وصل في تطرفه في القتل من قاتلي أبيه تسعة وتسعين رجلا وكثيرا ما كان ينشد مبديا عداوة ومرارة وأسفا على فقده أباه .

يقول في ذلك :[2]

أضعتم أبي إذ مال شق وساده على جنف قد ضاع من لم يوسد
فإن تطعنوا الشيخ الذي لم تفوقوا منيته وغبت إذ لم أشهد
فطعنة خلس منكم قد تركتها تمج على أقطارها سم أسود

فإنه هنا يبدي الحسرة والألم ويتمنى لو كان حيا لدافع عن أبيه بكل حماسة وشجاعة ولأذاقهم الويلات ولفتك بهم ثأرا منهم .

ولما ترعرع الشنفري جعل يغير على القبائل المجاورة من الأزد فيقتل من أدرك منهم[3]

وقد قدم الشنفري منى - وبها جراح بن جابر فقيل له هذا قاتل أبيك فشد عليه فقتله ثم سبق الناس على رجليه فقال في ذلك :

---

(١) المفضليات ص ١٩٧
(٢) الطرائف الأدبية ص ٣٥
(٣) المفضليات ص ١٩٨

قتلــت حرامــا مهــديا بملبّد جمــار منـي وسـط الحجيج المصوت

وهكذا فقد أخذ الشنفري بثأر أبيه وقتل قاتل أبيه ـ وحياة هذا حالها عنفاً ودما لا بد أن تصبغ نفسيته بالعنف والقسوة حتى وصل به الحال إلى قتل ما لا يحصى من النفوس البريئة التي لا ذنب لها فضلا عن نتائج غزواته وهجومه في بطون الأودية وعلى القوافل التجارية بحيث قتل الكثير من النفوس البشرية نهبا وسلبا للغنائم حتى أصبح الشنفري يمثل الجانب الدموي في دنيا الصعاليك .

وكان نتيجة لقتله حراما أنه آتٍ على أسيد بن جابر وكان من رجال العرب المشهورين فقال رأيت آنفا الشنفري بسوق حباشة فقال أسيد أثبته فقال نعم والله فقال أسيد لا يرجع والله أبدا حتى يأكل من جبن أبيدة فخرج له أسيد بن جابر ومعه ابنا أخ له وهما ابنا حرام بن جابر الذي باء بالحارث بن السائب الفهمي وكان الشنفري قد قتله بمنى فجلسوا له على الطريق في ليلة ظلماء فلم يلبثوا أن طلع عليهم الشنفري في إحدى رجليه نعل والأخرى لا نعل فيها وإنما صنع ذلك لئلا يعرف أنه مشى إنسان فلما سمع الغلامان قال هذه والله الضبع قال لا ولكنه هو فاجعلا نعالكما على مقاتلكما فلما رأى سوادهم الشنفري نكص فقال الغلامان فطن والله . فقال الشيخ كلا إنه يستطرد لنا لنتبعه وهو راجع فلم ينشب أن رجع فلما رآهم في مكانهم رماهم بسهم فنظمه في ساقي أسيد.فلم يتحرك وأقبل الشنفري حتى إذا كان بينهم وثبوا عليه فأخذوه فربطوه ثم وردوا به الحي فاجتمع الناس عليه فلما اختلفوا فيه وهو مربوط ملقى على وجهه مكتوفا فجعل بعضهم يقول منوا عليه وأطلقوه واستصلحوه لأنفسكم فإنه منكم ويقول بعضهم الآخر اقتلوه وسمع ذلك منهم غلام كان قد قتل الشنفري أباه فيمن قتل فخشى أن يطلق سراح الشنفري فهوى إليه وهم مشاغيل في العراء فاحتز يده من كوعها فقطعها فألقاها بين يديه ورأوا ما صنع فانكبوا عليه والشنفري يقول وكانت في يده تلك شامة وفي راحته سواد فجعل ينظر إليه ويقول :[١]

لا تبعــدي إمــا هلــكت شامة فــرب خرق قتلـت عظامـه

ورب خرق قطعت قتامه

(١) الطرائف الأدبية ص ٢٨

ثم قال أسيد بن جابر من كان يطلبه بشيء فليحضر فحضروا ثم ربط إلى شجرة حتى مات فقال تأبط شرا يرثيه :

على الشنفري ساري الغمام ورائح	غزير الكلى وصيب الماء باكر
عليك جزاء مثل يومك باكيا	وقد رعفت منك السيوف البواتر
ويومك يوم العيكتين وغطفة	عطفت وقد مس القلوب الحناجر
تجول ببز الموت فيه كأنهم	لشوكتك الحدى ضئين نوافر

فإن تأبط شرا هنا قد امتدح شجاعة وبأس الشنفري وقد كان الشنفري لتأبط شرا تلميذا مطيعا ومتأسيا به في سيرته الصعلوكية وتحمل أبيات تأبط شرا التهديد والوعيد لقاتلي تلميذه الشجاع الشنفري ويذكر قاتليه أن الشنفري كان قد قتل العديد من رجالهم وفتك بهم قبلا وهكذا نشاهد أن الشنفري قد شب متأسيا بأخلاق الصعاليك وأن حياته كانت ممزوجة بالدم القاني وقد أوجد مقتل أبيه صدمة عنيفة في حياته بحيث أصبح مستعدا لفعل أي شيء ضد الناس جميعا فضلا عن تعرفه على الصعاليك الذين كانت حياتهم يسيطر عليها العنف والقتل وقد كان اتصاله بتأبط شراً عاملا قويا في أنه أصبح جسوراً في هجمات الغزو ضد الناس بحيث أصبح فتكه وقتله للنفوس حداً لا يصدق . وقد فعلت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية فعلها في تشكيل نفسيته وغلبة العنصر الشيطاني الاجرامي على حياته الذي لا يقف عند حد معين لافتقاد الضوابط النفسية السليمة .

الشّنْفــري

الفصــل الأول

حياته

نسبه

الحدس بمولده

استرقاقه وأسره

زواجه

فتكه بقاتلي أبيه

مقتله وصلبه

« الشنفــري »

حيـاتــه

نسـب‍ـه :

هناك اختلافات بين الرواة حول نسب الشنفري ومولده وحياته وهذه أهـم الروايات حسب ما وردت في كتب الأدب الكبرى : ـ

١ ـ بالنسبة لنسبه قيل إنه ثابت بن الأواس الأزدي ولقب بالشنفري لعظم شفتيه وقد سبت بنو سلامان الشنفري وهو غلام فجعله الذي سباه في بهمة يرعاها مع ابنة له وهـو أحـد صعـاليك العـرب وعدائيهـا وصاحـب هذه الـرواية ـ رواية الأغاني[1] .

٢ ـ أما المفضل الضبي صاحب المفضليات فهي تورد الرواية الآتية[2] (وقال لؤ رج حدثني عبد الله بن هشام بن أبي عمير النمري أن الشنفري من الأواس بن الحجر بن الهنيء بن الأزد . وأن بني شبابة وهم حي من فهم بـن عمرو بـن قيس بن عيلان أسروه وهو غلام صغير فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مفرج رجلا من فهم ثم أحد بني شبابة ففدته بنو شبابه بالشنفري فكان الشنفري في بني سلامان يظن أنه أحدهم حتى نازعته ابنة الرجل الذي هو في حجره وكان قد اتخذه ابنا له فقال للبنت مرة اغسلي رأسي يا أخيه فأنكرت أن يكون أخاها ، فلطمته فذهب مغاضبا إلى الذي هو في حجره فقال له أخبرني من أنا ـ فقال أنت من الأواس بن الحجر فقال أما أني سأقتل منكم مئة رجل بما اعتبدتموني وقال للجارية السلامية :

---

(١) أغاني الأغاني جـ ٢١ ص ٦٠٨

(٢) المفضليات ط بيروت ص ١٩٤

ألا ليت شعري والتلهف ضلة	بما لطمت كف الفتاة هجينها

نجد هنا أن السبب في لطمة الفتاة للشنفري هو ترفع الفتاة عن غسل رأسه ـ أما رواية الأغاني فقد أرجع الأصفهاني سبب اللطمة إلى رغبة الشنفري في تقبيل الفتاة وكانت لطمتها له ردا على محاولته .

أما الرواية الثالثة فقد أرجعت سبب غزوة الشنفري لبني سلامان أن أحدهم وثب على أبي الشنفري وقتله والشنفري صغير فلما رأت أم الشنفري أن ليس يطلب بدمه أحد ارتحلت به وبأخ له أصغر منه حتى جاورت في فهم فلم تزل فيهم حتى كبر الشنفري فجعلت تبدو منه عرامة وجعل يكره جانبه وقد وقع في نفس صعلوك مشهور هو تأبط شرا وكان يكرمه ويدنيه وكان يغير مع تأبط شرا حتى صار لا يقام لسبيله وكان أول ما قال من الشعر وهو صغير قوله بعد أن مات أخوه وهو يفعة فخرجت أمه تولول عليه وتبكيه فقال الشنفري في ذلك :

ليس لوالدة همها ولا قبلها لابنها دع دع
تطوف وتحذر أحوالـه وغيرك أملك بالمصرع

وقد أورد البغدادي صاحب الخزانة رواية أخرى عن نسب الشنفري ومولده أن الشنفري شاعر جاهلي قحطاني من الأزد وهو كما في الجمهرة وغيرها من بني الحارث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر بن الهنيء بن الأزد[1]

ويذكر صاحب الخزانة كذلك أن الشنفري لقب غلبت عليه وأن اسمه ثابت بن جابر ثم يرد البغدادي هذه الرواية إلى الخطأ كما خطأ العيني في زعمه أن اسم الشنفري عمرو بن براق وأن هذين صاحبان له في التلصص والذي أراه من هذه الروايات جميعا أن الشنفري اسم حقيقي له غلب عليه وليس اسمه ثابت بن جابر أو عمرو بن براق وهذان صعلوكان من صعاليك العرب اللذين تعرف الشنفري بهما . وكان هؤلاء الثلاثة أعدى العدائين العرب وهم الشنفري وتأبط شرا وعمرو بن براق وقد قيل عن الشنفري ـ أعدى من الشنفري[2]

---

(١) الخزانة جـ ٣ ص ٣٤٣

(٢) مجمع الأمثال للميداني .

وهناك رواية لأبي تمام في حماسته يقول فيها :

« ذكروا أن الشنفري من بني الأواس بن الحجر بن المنيء بن الأزد بن الغوث شاعر جاهلي يضرب به المثل في الحلق والدهاء وكان قد أسرته بنو شبابة[1] ابن فهم فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان رجلا من بني شبابة ففدته ـ بنو شبابة بالشنفري فكان الشنفري في بني سلامان لا يحسب نفسه إلا أحدهم حتى نازعته بنت الرجل الذي في حجره وكان قداتخذه ابناً له فقال للفتاة ذات يوم اغسلي رأسي يا أخية فأنكرت أن يكون أخاها ولطمت وجهه فذهب مغاضبا حتى قدم إلى الرجل الذي اشتراه وكان غائبا فقال له الشنفري ممن أنا قال من الأواس بن الحجر أما أني لا أدعكم حتى أقتل منكم مئة رجل فقام يقتلهم حتى قتل تسعة وتسعين رجلا ولما ضرب رجل رأسه بعد موته عقرت قدمه فمات فكمل قسم الشنفري بقتل مئة من بني سلامان .

وهناك رواية أخرى تزعم أن سبب مقتل الشنفري لمئة من بني سلامان هو بسبب أن والد الفتاة تد زوجه ابنته بعد أن رأى شجاعته وأصله وشرفه وذلك إثر سماعه الشنفري ينشد بعد لطمة البنت له :

ألا هل أتى فتيان قومي جماعة	بما لطمت كف الفتاة هجينها[2]
ولو علمت تلك الفتاة مناسبي	ونسبتها ظلت تقاصر دونها

فلما سمع سيده قوله هذا سأله ممن هو فقال أنا الشنفري أخو بني الحارث بن ربيعة فقال له لولا أني أخاف أن يقتلني بنو سلامان لأنكحتك ابنتي فقال علي إن قتلوك أن أقتل بك مئة رجل منهم فأنكحه ابنته وخلى سبيله فسار بها إلى قومه فشدت بنو سلامان على الرجل فقتلوه فلما بلغه ذلك سكت ولم يظهر جزعا عليه وطفق يصنع النبل ويجعل أفواقها من القرون والعظام ثم غزاهم فجعل يقتلهم ويعرفون نبله بأفواقها في قتلاهم حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلا وكمل العدد مئة عندما ضرب رجل عظام رأسه بعد صلبه فقتلته فكمل العدد مئة رجل . وهكذا غير

---

(١) حماسة أبي تمام ص ١٨٧

(٢) الطرائف الأدبية ص ٤٠

أن الروايات في نسب الشنفري مختلفة في بعض الوجوه ومتفقة في غالبها . أما وجه الخلاف فهو خلاف عن سبب فتكه وقتله لمئة من بني سلامان هل كان السبب في القتل لأنهم قتلوا أباه ؟ أو لأنهم قتلوا والد زوجته قعسوس الذي أنكحه ابنته وخالف أعراف القبيلة ؟ . أما الخلاف على اسمه فهو يرجع إلى عدم القطع باسم ثابت ـ هل الشنفري اسم له أم لقب ـ وما هو اسمه الحقيقي ـ ولكني بعدما درست النصوص الأدبية والتاريخية لسيرته في ديوانه وأشعاره ورثائه من قبل أستاذه تأبط شرا أرجح أن يكون اسمه الشنفري .

الحدس بمولده :

من أصعب الأمور على دارس الأدب الجاهلي أن يحدد الزمن لكثير من الأحداث وخاصة تلك التي تبحث عن ميلاد شاعر أو عظيم من عظماء الجاهلية إلا ما ندر . أما ميلاد شاعرنا الشنفري فأرى أنها قريبة العهد بالاسلام ذلك أن الشنفري كان على صلة بشاعر صعلوك أسلم فيما بعد وهو أبو خراش الهذلي فقد كان صديقا لشاعرنا الشنفري ومن المحتمل وأحدس أن ميلاد الشنفري كان قريبا جدا من ظهور الإسلام إذ أن أبا خراش عمر وعاش حتى خلافة عمر بن الخطاب الذي انتهت خلافته عام ٢٤ هـ وربما قتل الشنفري في العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة قبل الإسلام أي قبل الإسلام بحوالي أربعين سنة تقريبا ولا يمكن الجزم بالضبط بالسنة التي ولد فيها الشنفري لما ذكرت آنفاً .

أسره واسترقاقه :

من الثابت تاريخيا وفنيا أن الشنفري قد وقع في السبي وبيع لسيد من بني سلامان وقد ورد خبر أسره واسترقاقه في معظم مصادر الأدب وقد أورد صاحب الأغاني في أغانيه « أن بني سلامان سبت الشنفري وهو غلام فجعله الذي سباه في بهمة يرعاها مع ابنة له »[1] .

وقد أورد صاحب المفضليات رواية لغير مؤرخ مؤداها أن الشنفري وأمه قد

---

(١) الأغاني جـ٢١ ص ٢٠٨

وقعا في فهم وأن الأزد قد قتلت رجلا منهم في خفرة رجل يقال له الحارث بن السائب الفهمي فرهنوهم الشنفري وأمه وأخاه وأسلموهم ولم يفدوهم فنشأ فيهم الشنفري فكان شديد البأس وكان أشد منهم على الأزد قتلا وسلبا وقد قتل أبوه لبعض أهله وقد كان في موضع من أهله ولكنه كان في قلة ومن قوله في أبيه :[1]

أضعتم أبي إذ مال شق وساده	على جنف قد ضاع من لم يوسد
فإن تطعنوا الشيخ الذي لم تفوقوا	منيته وغبت إذ لم أشهد
فطعنة خلس منكم قد تركتها	تمج على أقطارها سم أسود

ولما ترعرع الشنفري جعل يغير على الأزد فيقتل من أدرك ثم قدم مني وبها حرام بن جابر فقيل له هذا قاتل أبيك فشد عليه فقتله ثم سبق الناس على رجليه فقال في ذلك :

قتلت حراما مهديا بملبّد	جمار مني وسط الحجيج المصوت

من هذا نرى أن الشنفري قد وقع في الأسر واسترق وقد انتقم من قاتل أبيه ولكنه كان قد استخدم عند سيد يرعى البهم مع ابنة السيد التي تزوجها فيا بعد وقد انتقم من قاتلي أبيها لأن قومه قتلوه لأنه أنكح ابنته من عبد ليس من القبيلة وخالف أعراف القبيلة وقتل الشنفري بوالد زوجته مئة من بني سلامان .

زواجه من قعسوس :

عندما كان الشنفري يرعى البهم مع ابنة سيده تحرك لاعج الهوى وداعي الحب بين ضلوعه وطلب منها أن يقبلها أو أنه قبلها فلطمته ثم أخبرت أباها بالخبر فسارع ليقتله لولا أنه سمعه ينشد[2]

ألا هل أتي فتيان قومي جماعة	بما لطمت كف الفتاة هجينها
ولو علمت تلك الفتاة مناسبي	ونسبتها ظلت تقاصر دونها
أليس أبي خير الأواس وغيرها	وأمي ابنة الخيرين لو تعلمينها

(١) الطرائف الأدبية ص ٣٥

(٢) الطرائف الأدبية ص ٤٠

إذا ما أروم الـود بينـي وبينها   يؤم بياض الوجـه منـي يمينها

فلما سمع أبوها قول الشنفري سأله بمن هو فأجاب أنا الشنفري أخو الحارث ابن ربيعة فقال له لولا أني أخاف أن يقتلني بنو سلامان لأنكحتك ابنتي فقـال له الشنفري عليّ إن قتلوك أن أقتل بك مئة رجل منهم فأنكحه ابنته وخلى سبيله فسار بها إلى قومه فشدت بنو سلامان على الرجل فقتلوه فلما بلغه ذلك سكت ولم يظهر جزعا عليه وطفق يصنع النبل ويجعل أفواقها من القرون والعظام ثم غزاهم فجعل يقتلهم ويعرفون نبله بأفواقها في قتلاهم حتى قتل منهم تسعة وتسعـين رجـلا ثم غزاهم غزوة فغدروا به ثم خرج هاربا فخرجوا في أثره فأمسكوه وقتلوه وصلبوه فلبث عاما مصلوبا فجاء رجل منهم كان غائبا فمر به وقد سقط فركض رأسه برجله فدخل فيها عظم من رأسه فبغت عليه فمات منها فكان ذلك الرجل هو تمام المئة وذرع خطو الشنفري ليلة قتل فوجدوا أول نزوة نزاها إحدى وعشرين خطوة والثانية سبع عشرة خطوة وعلى ذلك فقد تجاوز الشنفري في القتل حدود المعقول والذي تعـارف عليه أهل الجاهلية إذ وصل قتله إلى ما لا يعقل من النفوس البريئة .

ونحن نعرف أن الأخذ بالثأر في الجاهلية كان غير مقيد بقيد معين ولكن هذا بلغ حداً فاق كل تصور هذا إذا أخذنا رواية الأغاني مأخذ الثقة والصدق وكذلك رواية المفضل الضبي وأعتقد أن اتفاق الروايتـين في ذلك أمـر صحيح وبعيد عن الكذب وإن كان فيه شيء من المبالغة .

وربما دعم هذه الرواية من أن الشنفري قتل مئة من بني سلامان ما عرف عن الشنفري من الشجاعة والصرامة والعرامة وتعذر وجود فرصة من الوقوع في قبضة بني سلامان ما عرف عنه من العدو إذ كان يقتل ثم يهـرب على رجليه حتـى قيل (أعدى من الشنفري)[1] .

هذا من جهة ومن الثابت تاريخيا أن الشنفري قد نشـأ في أحضـان الحـركة الصعلوكية فأخذ أخلاقهم وتربى على الخشونة والفتك والسلب المبكر وغرست فيه مقومات العنف والسخط والغضب وكراهية كل الناس مما أباح لنفسه أن يقتل من يشاء متى شاء لعدم وجود سلطة ضابطة تأخذ الجاني وتعاقبه .

---

(١) مجمع الأمثال - مثل ٢٦١٤ ومثل ١٢٥٦

الفصـــل الثانـــي

العوامل المؤثرة في شعره

١ ـ اتصاله بمشاهير شعـراء الصعاليك .

٢ ـ أثر النظام القبلي في حياته .

٣ ـ الفوارق الاقتصادية والاجتماعية وتأثيرها على نفسيته .

٤ ـ الصعلكة والصعاليك ومذهبهم الاقتصادي والاجتماعي .

اتصاله بمشاهير شعراء الصعاليك :

أوضحت في الفصل الأول أن الشنفري عندما قتل أبوه جاورت أمه مع أخ له صغير في فهم وقد تعرف في هذا الحي على صعلوك مشهور له تاريخ عريق في عالم الصعلكة والغزو والسلب . إنه الصعلوك الفاتك تأبط شراً وقد وجد تأبط شراً في الشنفري تلميذاً وشجاعاً أبياً فقربه إليه وعطف عليه وتبنى تربيته والاشراف عليه فكرياً وسلوكيا مما كان له أكبر الأثر على شخصية الشنفري فيما بعد . وقد كانت ظروف الشنفري وسنه في هذا الزمن مناسباً لتقبل المبادىء الصعلوكية ذلك أنه فقد أباه وعائله فلم يعد له هناك من مرب أو مشرف أو ناصح في سني حياته المبكرة والتي تعد من أخطر مراحل العمر ، ثم إنه كان شجاعاً وذا مراس مما ساعده على أن تنمو فيه عناصر الثورة والتمرد والعنف وقد وجدت هذه المبادىء هوى في نفسية الشنفري وتشكلت شخصيته على هذا الطابع من القسوة والعنف ولله در القائل :

إن الغصون اذا عدلتها اعتدلت ولا تلين إذا كانت من الخشب

فقد وجد الشنفري في انضمامه الى الصعاليك فرصة مناسبة للانطلاق لتحقيق ما في نفسه من آمال عراض بحيث تترك المجال أمامه لفعل كل ما يريد قتلاً وسلباً وجناية .

وكان الشنفري شديد الأسى والحزن لفقدانه أبيه وقد تذكره وتمنى لو أن عاش حتى ينعم ببره وحنانه ووده إلا أنه قد انتقم من قاتل أبيه وصرح بذلك :

قتلت حراماً مهديا بملبد ببطن منى وسط الحجيج المصوت

وكم كان يعبر عن حبه لوالده عندما جادت نفسه بهذه الأبيات التي جاشت بالمشاعر الابوية والانسانية

أضعتم أبي إذ مال شق وساده على جنف قد ضاع من لم يوسد
فإن تطعنوا الشيخ الذي لم تفوقوا منيته وغيب إذ لم أشهد
فطعنة خلس منكم قد تركتها تمج على أقطارها سم أسود

فبعد أن فقد الشنفري أباه وجد في أستاذه تأبط شراً الصعلوك المشهور رفيقاً عوضه بعض الحنان والبر من الأب وشاءت الأقدار أن يكون الشنفري شاعراً مشهوراً كاستاذه تأبط شراً إن لم يزد عليه في الشاعرية إذ تفجرت منه ينابيع الفتوة والقوة والفروسية في شعره وقد رعاها أستاذه رعاية عظيمة لأنه كان يعتز بالشنفري وبشاعريته وقد رثى الشنفري أخاه الأصغر عندما توفي بالأبيات المذكورة .

إلا أن شعر الشنفري قد مثل نفسية هائجة مضطربة ثائرة تقطر دماً وعنفاً وقسوة ورغبة في الفتك شديدة حتى سهل انقيادها وراء العصابات الصعلوكية في مذهبهم العام الذي يتمثل في الغزو والسلب والنهب ثم أخذ الدروس العملية في هذه المجالات على يد أستاذه العريق في عالم الصعلكة والاجرام تأبط شراً . وذلك في خروجه معه ومرافقته للصعاليك في غزوهما للقبائل أو الاستيلاء على الأنعام في الصحراء .

أثر النظام القبلي في نفسيته :

كانت القبيلة العربية في العصر الجاهلي تمثل وحدة متجانسة من حيث أصلها ورجوعها الى أب واحد ، ومن حيث الاعتزاز بشرف القبيلة وبعدد أفرادها والافتخار بقرومها وأرومتها بين القبائل الأخرى وقد كان لكل قبيلة عرف وتقاليد معينة ينبغي أن يلتزم بها الجميع من كل أفراد القبيلة بحيث لا يشذ أحد من أفرادها على هذا العرف وكان شعارهم المقتدى به في ذلك قولهم (في الجريرة تشترك العشيرة) وما على الفرد الا أن يسمع ويطيع وينفذ أوامر الشيخ الذي كان يعتبر عندهم في ذلك الوقت أميراً أو ملكاً أو رئيساً عاماً على القبيلة سواء أكانت أوامر الشيخ حقاً أو باطلاً . وكانوا يتمثلون في ذلك بالحكمة المعروفة

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وبالقاعدة الأخرى في العصبية القبلية

قوم إذا الشر أبـدى ناجـذيه لهم طـاروا إليه زرافـات ووحدانا
لا يسألـون أخاهـم حـين يندبهم في النائبـات على ما قال برهانا

وقد ساعدت طبيعة بلادهم الجغرافية من حيث جدب معظمها وجود الفقر المدقع لانعدام الزراعة أو الأنهار أو المياه وندرة سقوط الأمطار ثم وجود النظام القبلي ورسوخه في نفوسهم من حيث الطرد والخلع والابعاد والتبرأ من الخارجين على نظامه وأعرافه ساعدت كل هذه العوامل على نشـوء حركة الصعـاليك واتسـاع خطرهـا وشمول نفوذها الى مناطق عديدة داخل الجزيرة العربية إذ كانوا يقطعون الطرق ثم يغيرون على القوافل التجارية ويسلبون البهم وبقية البهم والبضائع وكل الاسلاب التي يجدونها ثم إنهم كانوا يسطون على الآمنين فيقتلونهم ثم يأخذون كل ما يجـدون من الغنائـم لذا فإن الجانـب البـارز والمميز والـذي استـولى على حياة الصعاليك ومنهم الشنفري بالطبع هو جانب الغزو والقتل والاغارة وخاصـة على الأغنياء الأشحاء أماغارة الشنفري فقد كانت مركزة على بني سلامان الذين قتلـوا أباه . ونلاحظ أن هناك تعليلاً قد يكون مقبولاً في أنه يرجع السبب في شدة قتـل الشنفري للآخرين (إما لأنه فقد توازنه الاجتماعي مع قبيلته الأزد ، أو لأنه نشأ فاتكاً بالطبيعة وكان مفطوراً على القسوة والعنف في قبيلة فهم المعروفة بكثرة لصوصها)[1] حتى بالغ في القتل بحيث وصل الى مستوى لا يتصوره عقل لأفراد أبرياء لا يحصون من قبيلـة الأزد ، وكان شديد البـأس والنفس وكان أشد فهم على الأزد قتـلاً وسلباً)[2] .

وقد استغل الشنفري بذكائه وحسن تصرفه حركة الصعاليك استغلالاً خاصاً يعود عليه بالفائدة والنفع إذ أنه وجد في هذه الحركة وسيلة ناجعة لتحقيق أحلامه بالفتك بأكبر عدد ممكن من أعدائه الذين قتلوا أبـاه وبالـذين قتلـوا والـد زوجته قعسوس وفعلاً كان يغير ويقتل كل من وصلت إليه يده مع أستاذه تأبط شراً والذي وجد في الشنفري تلميذاً ممتازاً فلقنه دروس الصعلكة عملياً بالغزو والهجمات حتى صار لا يقام سبيله ورأى الشنفري أن فرصة الانتقام من قبيلة الأزد سانحة فصب

(١) الشعراء الصعاليك ص ٢٣٥
(٢) المعارف الاسلامية (الشنفري)

عليها جام غضبه بأن سلط عليها كل غزواته[1] . على أن الشنفري كان يتخذ أشكالاً عديدة في القتل ويتفنن في الانتقام إذ كان يصنع النبل بنفسه ويجعل أفواقها من القرون والعظام فاذا غزاهم عرفوا نبله بأفواقها في قتلاهم وكان اذا رمى رجلاً منهم قال له تحدياً أأطرفك ثم يرمي عينه)[2]

وهكذا نرى أن الشنفري كان متأثراً باتجاه الصعاليك الى أبعد حدود التأثر مع استغلاله لمذهب الصعاليك ونرى سيطرة الجانب الدموي على حياته معهم وكانت كل الظروف مهيأة لأن يسير الشنفري على هذا الاتجاه ويلتزم بالمذهب الصعلوكي التزاماً وثيقاً وقد ساعد النظام القبلي بما يحويه من سلبيات بما فيه من تمييز بين أفراده أحراراً وعبيداً ومن فقر مدقع سائد ومن طبيعة البلاد التي نشأ فيها الشنفري الذي عرفنا نشأته منذ ولادته بحيث صار مرتبطا بهذا النظام ارتباطاً لا مفر منه ولا مناص منه . بحيث خرج عن الأعراف القبلية وتقاليدها وعاداتها واستبدل منها أعراف الصعاليك وتقاليدهم ثم وجد في أعضاء الصعاليك ما افتقده من حنان والديه وخاصة استاذه المقرب منه تأبط شراً يرعاه ثم وجد الخلان الذين يسر إليهم بأسراره ثم اتخذ من هؤلاء الصعاليك أهلاً غير أهله حتى يقول في أصدقائه من الحيوانات ما نلمس منه أنه يفضل هذه الحيوانات على بني جنسه من البشر يقول :

ولي دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

وقد تكون من هذا الخليط الغريب من الأخلاط والغرباء والمخلوعين والمطرودين والشذاذ والجناة رابطة قوامها كراهية المجتمع الذي قسا عليهم وحرمهم من كثير من وسائل العيش الكريم وألفت المصائب بينهم ويجمعهم قول الشاعر (يؤلف ايلام الحوادث بيننا) حتى صارت لهؤلاء الصعاليك شهرة ذائعة الصيت في القبائل العربية وكانت تحذرهم وتبتعد عن دروبهم لذا لم تسر القوافل في الدروب بين الجبال والوديان وفي الطرق الا جماعات ويحميها رجال أشداء أقوياء ولعلنا ألممنا في التاريخ بالقوافل التي تسير الى الشام وكيف أن العرب كانوا يستخدمون العبيد الأقوياء في حراستها .

---

(1) الأغاني جـ ٢١ ص ١٤٢

(2) ابن الانباري شرح المفضليات ط بيروت ١٩٦

أثر الفوارق الاجتماعية والاقتصادية على نفسيته :

لعب الفقر المدقع في حياة عرب الجاهلية في حياة الصعاليك دوراً فعالاً في تشكيل حركتهم المتمردة ، وجعلتهم يشعرون بالنقمة والكراهية والمقت على ذوي الثراء الاشحاء وقد تشكل خط سيرهم تبعاً ونتيجة لهذا السلوك وهذه الظروف القهرية .

وقد كان الأفراد يقومون بحركات فردية كسباً للقمة العيش أو السيطرة على القبائل انعاماً أو الاستيلاء على القوافل التجارية المارة بالدروب أثناء سيرها في الصحراء . وقد كان الميزان الاقتصادي بين الفقراء والأغنياء مختلاً وقد ظهر هذا الاختلاف في فئة قليلة تملك الكثير من الابل والغنم والاموال والموارد الأخرى كالتجارة . إذ كانت الابل والغنم والشاء دعامة الغنى عند الأغنياء في صحرائهم .

وبقدر ما كانت ثروة الأغنياء طائلة كانت حال الفقراء سيئة جداً حتى لا يكادون يجدون ما يقتاتون به وقد ظهر هذا الحال السيء من الفقر في قول الأحيمر السعدي الذي كان يستحي أن (يجور حبلاً ليس فيه بعير)[1] وقد بلغ الفقر بهؤلاء الفقراء حداً لا يطاق بحيث كان احدهم يضطر لبيع ابنائه هرباً من جائحة الجوع والفقر حتى إن القرآن الكريم قد أنكر فعلتهم هذه وعنفها عليهم فقال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً كبيراً » سورة الاسراء آية ٣١ .

وعلى الرغم من سوء حال الصعاليك الاقتصادي وبلوغهم مبلغاً رهيباً من العوز والحاجة فقد كانوا كرماء ذوي سماحة وعطاء ثم إنهم كانوا يطمعون في الغنى والثروة كالأثرياء ولكنهم كانوا في معظمهم فقراء ضائقين بالحياة كما ضاقت الحياة ذاتها بهم حتى إن زعيمهم كان يرجو أن يكون غنياً حتى لا يكون في حاجة الناس يقول عاتباً على زوجته التي تعذله على الاغتراب والارتحال

ذريني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير[2]

---

(١) الكامل للمبرد ص ٥٩

(٢) ديوانه ١٩٨ ـ ١٩١ ـ ٩٩

فسر في بلاد الله والتمس الغنى   تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا   من المال يطرح نفسه كل مطرح

فإن زعيم الصعاليك عروة بن الورد يرى في الغنى وسيلة من وسائل الشرف لأنه يغني عن التسول والإذلال للنفس بالطلب من الناس وربما كان الصراع بين القبائل في الجزيرة العربية يرجع في حقيقة الأمر إلى ظاهرة الفقر والغنى كأصل لا يمكن انكار أثره حتى جاء الاسلام النظام الخالد الذي أنقذ البشرية من وثنيتها وأخرجها من ظلمات الجاهلية الى نور الاسلام ووضع ميزاناً عادلاً ينصف فيه الفقراء من الأغنياء حتى إن الله تعالى لحكمته البالغة قد جعل الزكاة ركناً من أركان الاسلام لاصلاح الجانب الاجتماعي والاقتصادي وعلاج مشكلة الفقر عملياً ناهيك عن تعلياته الكريمة البارة بالضعفاء في أكثر من موضع من عتق رقاب ومن انفاق في سبيل الله في مجالات شتى ومن حث على الصدقة وهذا رسول الاسلام ﷺ يمثل ويوضح سبب أخذ الزكاة من الأغنياء وذلك عندما ارسل معاذاً والياً على اليمن وقال له : (وأخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم) ويكفي دليلاً على أهمية هذا الركن (الزكاة) أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد حارب المرتدين الذين رفضوا دفعها لبيت مال المسلمين وذلك لاقرارها فعلياً وعدم التفريط في أهميتها بل إنها مرتبطة بالنظام الشامل الكامل للاسلام وقال قولته المشهورة (والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه) ولا يمكن فصل الجانب التعبدي عن الجوانب الأخرى من الاسلام بأي شكل اجتماعياً أو سياسياً أو اقتصادياً أو أخلاقياً يقول الله تعالى في هذا المعنى : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض »[1] .

وقد أكثر الشعراء الصعاليك من الحديث عن الفقر في أشعارهم وهم حقاً يعبرون بصدق عن هذه الظاهرة الخطرة في كيان المجتمع والتي هي مشكلة عامة لا يخلو منها عصر ولا أمة فالغنى والفقر ظاهرتان موجودتان ما دامت الحياة وقد ذكر القرآن الكريم شيئاً عن الحياة العربية الاقتصادية في جزيرة العرب وذلك في قوله تعالى : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا

---

(١) البقرة آية ٨٥ ـ

الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)[1] فقد ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة حال الجزيرة وكيف كانت في حال فقيرة غير خصبة حتى جاء الاسلام ومنَّ الله على أمة العرب برسول كريم محمد ﷺ فتغيرت حال الجزيرة العربية نتيجة للايمان والعقيدة الاسلامية ثم تتابعت الفتوحات الاسلامية الخالدة وتفتحت سبل العيش الكريم وتدفقت الأرزاق عليهم من كل مكان . ومن الحكايات الواردة عن الفقر الشديد عند عرب الجاهلية أن أناساً من بني عبس أجدبوا في سنة أصابتهم فأهلكت أموالهم وأصابهم جوع شديد وبؤس فأتوا عروة يستنجدون به فخرج بهم وأصاب معاشاً[2] .

ويذكر الرواة أن أبا خراش الهذلي أقفر من الزاد أياماً حتى كاد يهلك[3] وقد بلغ الجوع مبلغه بالصعلوك السليك بن السلكة حيث يقول :

وما نلتها حتى تصعلكت حقبة   وكدت لأسباب المنية أعرف

ويقول الأعلم الهذلي عن جوع ابنائه الصغار :

وذكرت أهلي بالعرا   ء وحاجة الشعث التوالب
المصرميين من التلا   د اللاحين من الأقارب

ومن يدرس لامية العرب ويحللها بدقة متفحصاً ما بها من تصريحات جلية بالحديث عن الفقر والعوز يجد تلك النفس الأبية التي لم تجد في مواجهة الجوع القاتل والفقر المميت الا الصبر والتجلد على آلامه بل إنه يؤثر أن يموت من الجوع على أن يقبل صدقة من الآخرين يقول في ذلك[4]

أديم مطال الجوع حتى أميته   وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كي لا يرى له   عليَّ من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب   يعاش به الا لدي ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي   على الضيم الا ريثما أتحول
وأطوي على الخمص الحوايا كما   انطوت خيوطة ماري تغار وتفتل

---

(١) سورة ابراهيم آية ٣٧
(٢) الأغاني ٣/٨١
(٣) الأغاني ٢١/ ٦٠
(٤) لامية العرب برواية الأمالي .

أبيات تحمل بين طياتها أنواراً مشرقة ، ونبضاً صادقاً من ثنايا قلبه ونفساً دافقاً من بين ضلوعه ، وهي تصور الاباء النادر المثال من الشنفري الصعلوك الذي عهدناه قاتلاً فاتكاً سالباً وقد عبرت هذه الأبيات عن المعاناة الحقيقية والقسوة المتردية التي عاشها أولئك الصعاليك من جهة ثم تجلد هؤلاء الصعاليك على وخزات الجوع القاتل الذي هز وجدانهم وأفقدهم اتزانهم الذي كان ينبغي أن يلتزموا به ولكن ربما وجدنا شيئاً من التناقض بين أبيات الشنفري هذه التي تفسر مثالاً صادقاً نادراً على رغبته في القتل والغرق في بحور الدماء ، ثم انغماسه الى أذنيه في استمراء حياة القتل والاجرام والفتك بمبرر أو بدون مبرر لأنه ارتمى في أحضان الصعاليك تربية ونشأة وسلوكاً وسلباً ونهباً ثم تصور عفته وترفعه عن أخذ الإحسان من أهل الفضل .

وكم كان جميلاً من الشنفري لو أنه ابتعد عن حياة الاجرام والتمادي في القتل الذي لا يسيغه عرف أو عقل ولكن الظروف التي ذكرناها والتي أحاطت به وألزمته بمنهاج الصعاليك ربما كانت هذه الظروف تعطينا العذر الكافي لقبول حجته هذا إن صدقت الروايات التاريخية حول قتله لمئة من أعدائه هذا اذا كان قتله لأعدائه عيباً في العرف السياسي أو الاجتماعي والحربي ولا أرى أن في قتال الاعداء عيباً مهما كثروا فالعدو ليس له الا القتل والفتك في كل الشرائع والأعراف عند الأمم .

والذي ألمحه هنا أن انضمام الشنفري لحركة الصعاليك كان بحكم العوامل التي ذكرتها سالفاً من حرمانه من الأبوة البارة الراشدة الموجهة ، ومن الفقر العام ومن طبيعة البلاد التي نشأ فيها ، وقد أحسن الشنفري استغلال انضمامه للحركة الصعلوكية بالانتقام من قاتلي أبيه أو من قاتلي والد زوجته قعسوس الذي أحدث زواجه منها خرقاً للعادات القبلية والأعراف السائدة آنذاك ولكن والد زوجته أعجب بالجانب الشخصي للشنفري شجاعة وحماسة وكرماً وفتكاً وأصلاً .

ثم إن هذه الأبيات تمثل جانباً من عصر مظلم ضاقت فيه سبل العيش والحياة الكريمة أو قل ندرت فيه الأقوات والأزواد . حتى بلغ الأمر أن خولفت فيه كل الأعراف الانسانية والتقاليد الأخلاقية من وأد للبنات ، وقتل للأولاد وبيعهم ، والغزو بحق وبغير حق لبلاد الآخرين أو سلب لأموال الأغنياء البخلاء والأشحاء أو الكرماء فإن الأمر سيان أمام الجائع والمهم عنده أن يجد لقمة تسد رمقه وما مر بنا من

حوادث الغزو والقتل يكفي دليلاً على تردي حالة البؤس وسوء الأحوال المعيشية وارتكاب الجنايات بكافة صورها وأشكالها والاجرام في قتل النفوس البريئة ومما زاد حركة الصعاليك اضطراماً وإجراماً ولصوصية وإفساداً ذلك النظام القبلي غير السليم الذي كان سائداً هنا والذي قست فيه القلوب وجفت فيه مآقي الرحمة بحيث كثرت حوادث الخلع لكل مخالف لشيخ القبيلة ثم الطرد لكثير من أفراد القبيلة من طبقات شتى فقراء وأغنياء وقد كان امرؤ القيس ابناً لملك عربي طرده أبوه إما لأنه قال الشعر والملوك تأنف من قول الشعر وإما لأنه تغزل بزوجة أبيه وقد عاش امرؤ القيس عابثاً لاهياً ، وقد ذكر صاحب الأغاني أن امرأ القيس رافق شذاذ العرب وخلعاءهم حتى إنه قد قال الشعر متأثراً بهم هذا إذا صدقنا رواية الأغاني أما ما أرجحه فإن امرأ القيس لم يتأثر بالصعاليك في وجوه عديدة وربما تأثر أكثر شيء في سلوكه أثناء معايشتهم عندما كان مطروداً على الرغم من أنه نشأ مترفاً ثم سار في الفيافي لاهياً ولم تذكر الروايات في ترجمة حياته أنه قتل في صباه أحداً أو أثناء تجواله كما فعل الصعاليك كالشنفري وتأبط شراً وعروة بن الورد وأبي الطمحان وأبي خراش والسليك بن السلكة وقد صرح أحد الصعاليك بعدم مبالاته بالموت وحبه للتخلص من هذه الحياة القاسية التي لم ترحمه والتي أذاقته الويلات يقول الشنفري:

إذا ما أتتني ميتتي لم أبالها ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي

وعلام يأسى الشنفري ويحزن أعلى رغد العيش أم على حنان والديه ومن هذا كله الذي قدمنا كانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية واتصال الشنفري بصعلوك مشهور في عالم الصعاليك وهو تأبط شراً فقد كان هذا الصعلوك أستاذاً مربياً للشنفري وكان من الحوافز القوية في توجيه سير الشنفري الموجهة المصبوغة بالدم وقد برزت في أشعاره تيارات متعددة في فنون الشعر بالحديث عن فتكه تارة ثم انتقاماً لمقتل والده تارة أخرى ثم مبدياً إعجابه بالمرأة العفيفة النظيفة والشريفة تارة ثالثة ثم تغنيه بالبطولة والأبطال واتخاذه من الصعاليك رفاقاً أوفياء بدلاً من الأهل والعشيرة ثم استئناسه بحيوانات البر وتفضيلها على البشر في أخلاقها وطباعها وعشقه للعنف وحبه للغزو حتى إن الشنفري قد اخترع وابتكر فناً جديداً هو التفنن في القتل والتنكيل بالأعداء . حتى افتخر الصعاليك بأعمالهم هذه افتخاراً عظيماً يقول تأبط شراً :

متى ما تبغني ما دمت حيا مسلماً تجدني مع المسترعل المتعبهل

أي أنه يسير مع الطليعة في الغزو .

. حتى إن عروة بن الورد زعيم الصعاليك ورائدهم كان مثالاً نادراً في الندى والسماحة والشجاعة فقد قال عنه عبد الملك بن مروان . (من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد)[1] .

ثم وصف راوية العرب وإمامهم في الأدب الأصمعي وصف عروة بن الورد (بأنه شاعر كريم)[2] وكان عروة بن الورد يهاجم الأغنياء البخلاء ويثير عليهم الفقراء ويزعم أنه ما يفعل من أعمال الغزو والسلب إلا لأجل هؤلاء الضعاف والمساكين ومن يقرأ أبياته ويحللها تحليلاً دقيقاً يجد أنه كان داعية لتحقيق العدالة الاجتماعية والرفق بالضعفاء والرحمة بالمساكين في عصر لا نرى فيه إلا الشرك والظلم وكان يشارك اخوانه الضعفاء زاده وطعامه ويؤثر أصحابه الفقراء على نفسه ولله دره شاعراً فإن أبياته تمثل قمة الكرم والسماحة والبذل والعطاء يقول عروة بن الورد .

إني امرؤ عافي اناثي شركة وأنت امرؤ عافي إناثك واحد
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى بجسمي مس الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

فإن في هذه الأبيات من المعاني الرقيقة ما يدل على أن العرب في الجاهلية لم يخلوا من مبادىء الرحمة وقد فاقوا في هذه المفاهيم الانسانية كل المبادىء الأرضية الحديثة والتي تدعي وتزعم زوراً وبهتاناً الحرص على مصالح الفقراء وهي قد حولت الانسان الآدمي من بشر كريم الى آلة صماء وجردته من كل المعاني الانسانية الرفيعة التي جبله الله عليها وينطبق هذا على كل دعوة خرجت عن مفاهيم الاسلام في العصر الحديث مهما تعددت الأسماء وتباينت الأشكال . وهذه الأبيات تمثل أقصى ما

---

(١) الأغاني ٣/ ٧٤

(٢) الموشح ص ٨٠ وفحولة الشعراء ورقة (٣) .

وصلت اليه الرحمة في المجتمع القبلي الجاهلي . فضلاً عن الاسلام الخالد الذي جاء بأنواره الكريمةواشراقاته الرحيمة عندما نادى بإنصاف أولئك الفقراء والمساكين والمحتاجين إذ جعل من أركان الاسلام ركناً لعلاج ذلك الأمر الخطير إنها الزكاة التي شرعها الله تعالى رحمة بالضعاف يقول تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم »[1] .

وقد جعل الاسلام هذا الركن العظيم والبالغ الأهمية والخطر أساساً من أساسيات البناء الاجتماعي في المجتمع ولم يفصله بتاتاً عن الايمان بالله بل قرنه بالايمان وهذا دليل على أن الاسلام كل لا يتجزأ ولا يقبل الفصل بين اجزائه يقول الله تعالى في معرض الحث على الرحمة بالفقراء وعدم اهمال شأن هؤلاء المحرومين وعدم الفصل بين الايمان وبين الجوانب الأخرى في الحياة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب »[2] .

وهكذا نرى مدى العناية البالغة التي أولاها الاسلام للفقراء والمساكين وأنه فرض ذلك فرضاً ليس فيه منة ولا صدقة وانما هو واجب اسلامي تجاه هؤلاء الضعاف . وقد اكثر رسول الاسلام من حث المؤمنين على الصدقة والبر بالضعفاء في كثير من أحاديثه يقول في حديث ما معناه (. . . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى ما تعلم شماله ما تنفق يمينه) ويقول الصدقة تطفيء غضب الرب ولله در شوقي إذ يقول :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل في حق الحياة سواء

(١) التوبة آية ٦٠

(٢) البقرة آية ١٧٧

الصعلكة والصعاليك

مذهب الصعاليك الاقتصادي والاجتماعي في الحياة

التعريف بالصعلكة :

تعريفها لغة جاء تعريف الصعلكة في معاجم اللغة على النحو الآتي :

١ - في لسان العرب (الصعلوك هو الفقير الذي لا مال له)[١]

٢ - في القاموس المحيط (الصعلوك هو الفقير)[٢]

يقول حاتم الطائي :

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى فكلاً سقاناه بكأسيهما الدهر

٣ - ومن المعجم الوسيط الصعلوك : الفقير وتصعلك الرجل افتقر[٣]

وجمع الصعلوك الصعاليك ، والمصعلك رأس صغير مدور ، وعلى هذا فالمعنى العام لمادة صعلك افتقر وقد ورد هذا المعنى في الشعر الجاهلي يقول أوس بن حجر[٤]

يا عين جودي على عمرو بن مسعود أهل العفاف وأهل الحزم والجود
أودي ربع الصعاليك الأولى انتجعوا وكل ما فوقها من صالح مود

فالمعنى المفهوم هنا أن الصعاليك هنا بمعنى الفقراء الذين كانوا يقصدون عمرو بن مسعود الذي كان ينجدهم وقت اشتداد الجوع ويبرهم بفضله وعطائه ويقول الأعشى في المعنى ذاته .[٥]

على كل أحوال الغنى قد شربتها غنياً وصعلوكاً وما إن أقاتها

فالصعلوك هنا الفقير المعوز ويقول جابر بن ثعلبة الطائي

---

(١) لسان العرب في مادة صعلك
(٢) القاموس المحيط مادة صعلك
(٣) المعجم الوسيط مادة صعلك
(٤) ديوان حاتم الطائي والأمالي ٢/ ٢٨٢
(٥) ديوان الأعشى ص ٦١

كأن الغنى لم يعر يوماً إذا اكتسى ولم يك صعلوكاً إذا ما تمولا

ومما يروى عن رسول الله ﷺ أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين قال أبو عبيدة يستفتح أي يستنصر ثم قال الصعلوك هو الفقير واستشهد ببيت حاتم الطائي :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى فكلا سقاناه بكأسيها الدهر[1]

وقد تطور معنى الصعلكة فاطلق على الشجعان ونلاحظ ذلك في شعر المتنبي الذي وصف بطولة الحمدانيين وصمودهم في وجه الدولة البيزنطية حيث أذاقوا الروم الويلات والهزائم المتواصلة في غزواتهم على بلاد الروم يقول المتنبي[2] :

المخفرين بكل أبيض صارم ذمم الدروع على ذوي التيجان
متصعلكين على كثافة ملكهم متواضعين على عظيم الشان
خضعت لمنصلك المناصل عنوة وأذل دينك سائر الأديان

فإن المتنبي عندما وصف الحمدانيين بالصعلكة كان يقصد بها الشجاعة والبسالة التي أبدوها في مواجهة امبراطورية بيزنطة العاتية الجبارة ، ودون النهب والسلب الذي عرف عن صعاليك الجاهلية ، اللهم إلا السلب من الأعداء. وهم لشدة تصعلكهم لا يكادون يتركون ظهور جيادهم الا لكي يتفيئوا في ظلالها ومن ثم يمتطون صهوات جيادهم فتعدو بهم عدو النعام وتجري بهم جري الذئاب[3].

وقد اكتسب الحمدانيون في حروبهم المتكررة مع الروم مراساً وقوة وخبرة حتى إن هذه الامارة العربية الخالصة كانت عقبة في حلق الروم[4] ولم يمر يوم على امبراطورية بيزنطة الا وتهاجم الثغور والحصون الاسلامية من قبل الروم الطغاة فيقوم الحمدانيون الشجعان بقيادة اميرهم العربي الفارس سيف الدولة الحمداني

---

(١) الأمالي ٢/٢٨٢
(٢) ديوان المتنبي ط بيروت ص ٤١٤
(٣) الشعر في مجتمع الحمدانيين ص ٤١٧ ـ د . الشكعة
(٤) الحرب في شعر المتنبي للمؤلف ص ٤٥٠

ومرافقه شاعر العربية الأكبر بالرد على هجمات الروم كراً وفراً وسلباً وقتالاً ورد الصاع بأصوع ولكن للأسف مرت الأيام وسقطت هذه الامارة في وجه امبراطورية بيزنطة بفعل دسائس الخونة وتهاون السلف في مواصلة الجهاد في سبيل الله وكثرة الخلافات في داخل الدولة ومما يروى عن سيف الدولة الحمداني أنه أوصى قبيل وفاته أن يجمع الغبار الذي نتج من غبار أربعين معركة حربية خاضها سيف الدولة ثم يوضع هذا الغبار في وسادة ثم توضع تحت رأسه في قبره وقد فعل ذلك فعلاً ونفذت الوصية . وما أحرى شباب العروبة والاسلام أن يجمعوا صفوفهم ويوحدوا كلمتهم تحت راية التوحيد ويرجعوا الى الله رجوعاً حقيقياً ويطهروا كل أقطار الاسلام من رجس الاستعمار والصهيونية والشيوعية المارقة وما ذلك على الله ببعيد إن هم تمسكوا بكتاب الله وسنة رسوله قال تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)[1]

أهداف الصعاليك :

كان الصعاليك يغيرون على الأغنياء الأشحاء ثم يوزعون[2] هذه الأسلاب على الفقراء حتى إن معاوية بن أبي سفيان كان معجباً بعروة بن الورد مذهباً وتفكيراً وكرماً وقال عنه (لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم)[3] حتى الخليفة الأموي الآخر عبد الملك بن مروان كان يتمنى أن عروة قد ولده يقول (ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني الا عروة بن الورد لقوله[4]

إني امرؤ عافي انائي شركة ... وأنت امرؤ عافي انائك واحد
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بجسمي مس الحق والحق جاهد
أمزق جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

فلا شك أن عروة انطلاقاً من هذه الأبيات في معانيها البعيدة ومراميها العميقة يعد زعيماً من زعماء الاصلاح الاجتماعي فهو بحق رائد انساني في الدعوة الى الرحمة والبر بالفقراء والمساكين وهو في إحساسه هذا مندفع من حافز أخلاقي لا يبتعد كثيراً

---

(١) سورة محمد آية ٧
(٢) الحياة العربية د . الحوفي ص ٣٣
(٣) الأغاني جـ ٣ ص ٧٦
(٤) الأغاني جـ ٣ ص ٧٧

عن دعاة العدل الاجتماعي وهو مثل كريم في العصر الجاهلي في الإنفاق على ذوي العوز والحاجة . وكان عروة بن الورد يدعو أصحابه للاغتراب طلباً للرزق فقد قال عنه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لمعلم ولده لا تروهم قصيدة عروة بن الورد التي يقول فيها :

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير

وقد كان الصعاليك شجعانا أبطالاً في الكر والفر وفي الغارات على القبائل وفي مواجهة أعدائهم رغم اعتمادهم على شجاعتهم الشخصية يقول في ذلك أبو الطمحان القيني رداً على امرأته التي كانت تعاتبه على كثرة غاراته ومخاطرته بنفسه وقد كان لصاً خبيثاً وقد أكثرت من لومه على ركوب الأهوال فقال لها[1] :

لو كنت في ريمان تحرس بابه آراجيل أحبوش وأغضف آلف
إذن لا تتني حيث كنت ميتتي يخب بها هادٍ بآمرى خائف

فإننا نلمح هنا الإقدام المنقطع النظير في عدم الاكتراث بالحياة إذ أن هؤلاء الصعاليك كانوا لا يبالون بالحياة وبمغرياتها ، وكيف لا يكون هذا وهم إنما يغزون للعيش فهي معركة حياة أو موت ليس غير . في بيئة فرضت عليهم أوضاعها وقسوتها وجدبها وفقرها فليس هناك من سبيل الا الغزو والإغارة والاستيلاء على الانعام بطريق مشروع أو محظور .

وكثيراً ما كان الصعاليك يستجيرون ويطلبون النجدة من الآخرين من ذلك ما حدث للسليك بن السلكة الذي اختفى خوفاً من جماعة من بني عوارة وكان قد غزاهم فلم يظفر منهم بشيء فلاحقوه ولكنه استجار بامرأة منهم خبأته وفي ذلك يقول[2] :

لعمر أبيك والأنباء تنمى لنعم الجار أخت بني عوارا
من الخفرات لم تفضح أباها ولم ترفع لأخوتها شنارا
كأن مجامع الأرداف منها نقى درجت عليه الريح هارا

(١) الأغاني جـ١٣ ص٣٨٢
(٢) أغاني الأغاني جـ ٢١ ص ٥٩١

يعـاف وصال ذات البـذل قلبي ويتبـع الممنعـة النوارا
ومـا عجـزت مكيهـة يوم قامت بنصـل السيف واستلبـوا الخمارا

فعلى الرغم من غزو السليك لبني عوار ولحاقهم به فقد أجارته امرأة من بني عوار أنفسهم وحمته وعندئذ كان وفياً لها فذكرها في شعره ثم ذكر وفاءها له وعـدم تعرضه لها بشر أو مكروه رغم خلوتهما معاً بعيداً عن الأنظار . وقد كان الصعاليك ذوي سمعة مخيفة للقبائل الأخرى من العرب حتى إن رجلاً عربياً قد باع حلته مقابل هذا اللقب المخيف وفي ذلك يقول تأبط شراً لزوجة الرجل الذي اشترى اللقب مقابل تنازله عن حلته .

ألا هل أتـى الحسنـاء أن حليلها تأبـط شراً واكتنيت أبـا وهب
فهبه تسمـى اسمـي وسمانـي اسمه فـأين له صبـري على معظـم الخطب
وأين له بأس كبـأسي وثورتي وأين له في كل فادحـة قلبي

وكثيراً ما كان الشعراء يفتخرون بغزواتهم ورجوعهم سالمين محملين بالغنائم والأسلاب من ذلك ما يقوله تأبط شراً بعد رجوعه من غزوة وفتك :

ألا عجـب الفتيان من أم مالك تقـول أراك اليوم أشعـث أغبرا[1]
تبوعـاً لآثـار السرية بعدما رأيتـك براق المفـارق أيسرا
فقلـت لهـا يومـان يوم إمامة أهزبهـا غصنـاً من البـان أخضرا
ويوم أهـز السيف في جيد أغيد لـه نسـوة لم تلـق مثلي أنكرا
دنـوت له حتـى كأن قميصه تشرب من نفـخ الأخـادع عصفرا

فإن هؤلاء الصعاليك كانوا يحملون أرواحهم على أكفهم لا يبالون بالموت أو بالأخطار ما داموا على حال سيئة بئيسة ولا يكترثون بالصعاب مهما تعقدت الأمور في وجوههم حتى إنهم كانوا يترفعون عن حقل كل ما هو دنيء رغم استباحتهم لما هو أعظم من الدناءة خطراً وأشد من الحشمة اجراماً إنهم كانوا غارقين في الدماء الى آذانهم إلا أنهم عموماً كانوا من ذوي النفوس الأبية الكريمة السخية وهذا الشنفري يقول :

---

(٢) الأغاني حـ ٢١ ص ٦٠٦
(١) أغاني الأغاني ٢١/ ٦٠٧

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كي لا يرى له علي من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب يعاش به الا لدي ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي على الضيم الا ريثما أتحول
وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت خيوطة ماري تغار وتفتل
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أذل تهاداه التنائف أطحل

بمثل هذه المعاني ينبغي أن تكون نفسية الصعلوك رغم حاجته للقوت ولكنه أبي كريم النفس يترفع عن أخذ القوت بالمسألة انما يأخذها بحد السيف كالذئب الذي لا ينال طعامه الا من كسب يده .

وفي نفس المعنى يقول أبو خراش :

وإني لأثوي الجوع حتى يملني فأحيا ولم تدنس ثيابي ولا جرمي
واصطبح الماء القراح فأكتفي اذا الزاد أضحى للمزلج ذا طعم
أرد شجاع البطن قد تعلمينه وأوثر غيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة فللموت خير من حياة على رغم

وتعد المعاني في هذه الأبيات في رأيي في غاية الإبداع اللفظي والامتاع النفسي والأنس الروحي والسمو الخلقي والايثار الانساني ولله دره من شاعر صعلوك مجيد أبي وقد أسلم أبو خراش في أواخر حياته وحسن إسلامه في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقد كان الصعاليك مشهورين بحب المغامرة وكانوا يدعون أصحابهم الى الاغتراب وتحمل المصاعب والمصابرة على المشقات يقول عروة بن الورد :

دعني أطوف في البلاد لعلني أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
أليس عظيماً أن تلم ملمة وليس علينا في الحقول معول
فإن نحن لم نملك دفاعاً بحادث تلم به الأيام فالموت أجمل

وعلى هذه المعاني التي رأيناها نجد أن الاغتراب جوهر ولب هذه الدعوة الصعلوكية من زعيم الصعاليك وقائدهم وأميرهم وهو يؤثر الموت على البقاء في

أرض لا أمل فيها بحياة كريمة أبية .

أهداف الصعاليك :

لم يسعد الصعاليك في المجتمع الجاهلي نظراً لأن الثروة كانت موزعة بطريق لم ينالوا منها شيئاً فتأثروا تأثراً شديداً وأملقوا املاقاً دفعهم الى بيع أولادهم وقد اضطروا لظروف الحياة القاسية المحيطة بهم أن يأخذوا نصيبهم غصباً من ثروة محصورة في أيدٍ قليلة وهي طبقة الأثرياء الأشحاء .

على أن الدافع من ثورتهم على الأغنياء الأشحاء إما انتقاماً منهم لأنهم يضنون ببعض أموالهم عليهم وهم الطبقة المحرومة الفقيرة لذا غنموا عنوة وسلبوا قهراً[1] على أننا لا نقبل أن تلبس هذه الثورة الصعلوكية زياً بالمفهوم الحديث وخاصة نظرة الثورة الشيوعية المارقة الملحدة فهناك فرق جوهري بين ثورة الصعاليك البريئة من مفاهيم الثورات الحديثة وبين الثورة الماركسية التي أقامت سلطتها بالقهر والدماء واحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله والتي تمنى الانسان بالسعادة والرفاه وهي أبعد ما تكون عن هذه المفاهيم بل أشقه ودمرت كيانه وحطمت شخصيته وأفقدته أعز ما يملك أفقدته الايمان والمبادىء الأخلاقية الكريمة في حين كانت ثورة الصعاليك ثورة هدفها الحصول على لقمة العيش وشتان بين مفهوم الصعاليك وبين مفهوم الثورة الماركسية ولله در الشاعر الذي يقول إذ لا لقاء بين ثورة الصعاليك البريئة وثورة الالحاد والكفر والفقر الممثل في الثورة الماركسية يقول الشاعر :

سارت مشرقة وسرت مغربا   شتان بين مشرق ومغرب

وقد كان الصعاليك في العصر الجاهلي يغزون ويسلبون من أجل لقمة العيش ثم مساعدة الآخرين من الفقراء والمساكين حتى أعجب الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان وكذلك عبد الملك بن مروان بدوافع هؤلاء الصعاليك في توزيع الغنائم على ذوي الحاجة والعوز

أمزق جسمي في جسوم كثيرة   وأحسو قراح الماء والماء بارد

وعلى هذا فاننا نلمح فرقاً بيناً بين مفهوم الصعاليك الانساني البريء وبين

---

(١) الحياة العربية د . حوض ص ٣٠٠

مفهوم الاشتراكية الحديثة المصبوغة بالدماء وقهر الطبقات واعدام المعارضين ووأد الحريات ومحاربة الملكيات والقضاء على الأديان . فالدوافع عند صعاليك الجاهلية دوافع نابعة من الشفقة والرحمه والانسانية ودوافع الاشتراكية الحديثة دوافعها من القهر والتسلط ويكفي دليلاً على بطلانها تقهقر سلطانها والتخلي عن معظم مبادئها التي كانت تدعو إليها سابقاً .

ونعود الى خلق عرف عن الصعاليك وهو الجرأة والاباء والحماسة ذلك ما يقوله عروة بن الورد إذ يلوم صعلوكاً متقاعساً :

لحا الله صعلوكاً اذا جن ليله	مصافي المشاش آلفاً كل مجزر
يعد الغنى من نفسه كل ليلة	أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعساً	يحصى الحصى عن جنبه المتعفر
يعين نساء الحي ما يستعنه	ويمسي طليحاً كالبعير المحسر
ولكن صعلوكاً صفيحة وجهه	كضوء شهاب القابس المتنور
فذلك إن يلق المنية يلقها	حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

فإن في هذه الأبيات عدة مبادىء واضحة وصريحة وهي الدعوة الى الغزو ثم ضرورة الاقدام في سبيل الحصول على الزاد لتوزيعه على المحرومين ثم فيها توبيخ للصعلوك المتقاعس الذي لا تحدثه نفسه بالغزو والسلب في مجتمع ظلم أقوياؤه ضعفاءه وأغنياؤه فقراءه . والصعلوك يطلب منه دوماً الغزو فان بغنم فذلك ما يراد والا فهو في منجاة من اللوم والعذر يقول الشنفري (ومن يغز يغنم مرة ويشمت) فان في الغزو أمرين اما النصر والاستيلاء على الأموال وإما الفشل فلا عذر عليهم عندئذ . لقد كانت حياة الصعاليك تدور في هذين المحورين لأنهم مغامرون مخاطرون باعوا حياتهم مقابل قليل يقيمون أودهم ويقضون على حياة الكسل والتراخي .

ونلاحظ أن بعض الصعاليك كان معتدلاً في نظرته للأموال إذ نلمس ذلك في صورة مشرقة رائعة صورها الأحيمر السعدي أحد الصعاليك في الإسلام وحصر نظرته في مفهوم واضح وهي أن الأموال لله تعالى فليأخذ منها الصعلوك ما يسد رمقه ويقيم أوده يقول الأحيمر :

وإنـي لأسـتحيي من الله أن أرى أجـرر حبـلاً ليس فيه بعير
وأن أسـأل الحبـل اللئيم بعيره وبعـران ربـي في البـلاد كثير
عوى الذئـب فاستأنسـت بالذئـب إذ عوى وصوت انسان فكدت أطير
يرى الله أنـي للأنيس لشانيء ويبغضهـم لي مقلـة وضمير

فان هذا الصعلوك مستأنس للوحش في الصحراء مستوحش من الانسـان الظالم الذي يحرم الفقراء والمحتاجين رفده ويضن بمال الله على المساكين وقد أوضح الشعراء الصعاليك أهداف غزوهم للقبائل وسلبهم للأموال . يقول الشنفري :

وباضعـة حمـر القسي بعثتها ومـن يغز يغنم مرة ويشمت
خرجنا من الـوادي الـذي بين مشعل وبـين الجباهيهسات أنشـأت سربتي
أمشي على الأرض التـي لم تضرني لأنـكى قومـاً أو ألاقـي حمتي
أمشي على أين الغـزاة وبعدها يقربنـي منهـا رواحـي وغدوتي

ويذكر الشنفري فتكه ببني سلامان الذين أقسم أن يقتل منهم مئة نظير قتلهم والده أو والد زوجته قعسوس يقول :

قتلنـا قتيلا مهديـاً بملبد جمـار منـي وسـط الحجيج المصوت
جزينـا سلامـان، بن مفـرج قرضها بمـا قدمـت أيديهـم وأزلـت
شفينـا بعبـد الله بعض غليلنا وعـوف لدى المعـدى أوان استهلت

وكان الصعاليك يعتزون أيما اعتزاز بسلاحهم إذ أنه الوسيلة المعتمد عليها في الغارة والقتال يقول عمرو بن براقة في ذكر أنواع الأسلحة من سيف ودرع مفصلاً ذلك في هذه الأبيات :

وذي أمـل يرجـو تراثـي وإن ما يصـير لرفعـه غداً لقليل
ومـالي مال غـير درع ومغفر وأبيض من ماء الحـديد صقيل
وأسمـر حظـى القنـاة مثقف وأجـرد عريان السراة طويل

وبعد فهذا تصوير للصعلكة في مبادئها وأبرز شعرائهـا وتفصيل موجـز عن نشأتهم ومدى ارتبـاط الصعلـكة بالفقـر والغنى ثم تأثير ذلك كلـه على

الشنفري شاعرنا الذي خصصنا له هذه الدراسة والبيان وقد بينت كيف أن هؤلاء الصعاليك في مجال الاعتزاز من بعض الناس فيا بعد وهم في مذاهبهم الانسانية يختلفون عن أصحاب المذاهب الاجتماعية الحديثة بحيث أن هذه المبادىء وليدة عصرنا الحاضر الذي تحكمه ضروريات الصناعة والتجارة والزراعة أما في ذلك المجتمع الجاهلي فان كل ما هنالك فقد صدر ونبع من الضمير العربي الحي نحو مساعدة الفقراء والايتام الذي يكاد ينحصر في العرب في الجاهلية والذي استوحاه الشعراء الصعاليك من بلادهم وظروفها والبيئة التي كانوا يعيشون فيها .

الفصـــل الثالـث

موضوعات شعر الشنفري

أولاً : الفتك

ثانياً : الافتخار بالشجاعة

ثالثاً : العدو

رابعاً : الغزل

خامساً : العفة وإباء الضيم

سادساً : الحكمة

سابعاً : شعر المراصد

« موضوعات شعر الشنفري »

طرق شعراء الصعاليك موضوعات الشعر العربي المألوفة في غالبها إلا أن بعض الأغراض قد طغت على الأغراض الأخرى ، واستحدثت موضوعات أخرى أو قل ركز الحديث عنها أكثر من أي موضوع نظراً لطبيعة أفكار الصعاليك ونهجهم ومن الموضوعات المطروقة التي عنى بها الشنفري في شعره الافتخار والفتك والغزو والعدو والغزل ووصف حيوان الصحراء والاباء والكرامة والكرم والسماحة والحكمة ووصف السلام ووصف رفاق الرحلة . والدارس لديوان شعر الشنفري والمطلع على شعره بوجه عام يخرج بأن الشعر قيل في غالبه في موضوع القتل والفتك والتهديد أي أنه محصور في دائرة القتال والغزو وسوف أتناول عرضاً لكل غرض من الأغراض السالفة بايجاز .

أولاً : الفتك والغزو

لعل أبرز فنون شعر الشنفري والذي نالت النصيب الأوفى من شعره هي الفتك والغزو ولا غرابة في ذلك إذ أنه كان ناقماً على قاتلي أبيه ثم إنه ارتبط فكرياً وحركياً بالصعاليك الذين باعوا حياتهم تحقيقا لمآرب الصعلكة ثم إنه كان ناشئا على القتل والغزو لأن تأبط شراً ثقفه ونشأه ودربه على المبادىء الصعلوكية فقد كان الشنفري يغير باستمرار إما برفقة جماعة على بني سلامان أو يغير ويغزو منفرداً من ذلك، ما يرويه صاحب الطرائف الأدبية من أن الشنفري خرج في عدة صعاليك منهم ثابت (تأبط شراً) والمسيب وعامر بن الأخنس وعمرو بن براق حتى بيتوا العوص من بجيله فقتلوا فيهم واستاقوا إبلهم فاعترضت لهم خثعم وأثار عامر بصدق

الضراب فحملوا حملة رجل واحد وهزموهم فقال في ذلك الشنفري : ـ[1]

١ ـ دعيني وقولي بعد ما شئت إنني ‏ ‏ سيغدى بنعشي مرة فأغيب
٢ ـ خرجنا فلم نعهد وقلت وصاتنا ‏ ‏ ثمانية ما بعدها مستعتب
٣ ـ سرا حين فتيان كأن وجوههم ‏ ‏ مصابيح أولون من الماء مذهب
٤ ـ نمر برهو الماء صفحا وقد طوت ‏ ‏ ثمائلنا والزاد ظن مغيب
٥ ـ ثلاثاً على الأقدام حتى سما بنا ‏ ‏ على العوص شعشاع من القوم محرب

فالشنفري هنا يطلب من زوجته أن تترك عذله وتثريبه لأنه لا بد أن يوافي أجله يوماً ما والأفضل أن يموت في الغزو من أن يموت قاعداً دون غزو وهو يذكر أنه خرج مع رفاق كبار شجعان كماة يريدون الغزو والفتك وقد مروا بماء المستنقعات دون مبالاة ثم يواصل قوله :

٦ ـ فثاروا إلينا في السواد فهجهجوا ‏ ‏ وصوت فينا بالصياح المثوب
٧ ـ فشن عليهم هزة السيف ثابت ‏ ‏ وصمم فيهم بالحسام المسيب
٨ ـ وظلت بفتيان معي أتقيهم ‏ ‏ بهن قليلا ساعة ثم خيبوا
٩ ـ وقد خر منهم راجلان وفارس ‏ ‏ كمي صرعناه وخوم مسلب
١٠ ـ يشن إليه كل ريع وقلعة ‏ ‏ ثمانية والقوم رجل ومقضب
١١ ـ فلما رآنا قومنا مثل افلحوا ‏ ‏ فقلنا اسألوا عن قاتل لا يندب

فقد وصف الشنفري خروجه مع أقرانه الشجعان وفتكه بالأعداء وظفره عليهم أو عودته وأقرانه سالمين محملين بالأسلاب .

ويقول في غزوة أخرى بعد أن أذاق عدوه ناراً حامية : [2]

١ ـ وكف فتى لم يعرف السلخ قبلها ‏ ‏ تجور يداه في الاهاب وتخرج
٢ ـ ومستبسل ضافي القميص ضممته ‏ ‏ بأزرق لا نكس ولا متعوج[3]

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٣٢ و٣٠
صوت فينا ، ونشينا ، الرهو المستنقع من الماء ، ثمائل جمع ثميلة وهي سقاء الماء ، الشعشاع : الطويل الخفيف
(٢) الطرائف الأدبية ص ٣٣
(٣) مستبسل : صحب ، أزرق : سهم

٣ ـ عليه نسـارى على خوط نبعـة . وقـوف كعرقـوب القطـاة مدحرج

٤ ـ وقاربـت من كفـيّ ثم نزعتها بنـزع إذا ما استكره النـزع محلج

٥ ـ فصاحت بكفي صيحـة ثم راجعت أنـين المريض ذي الجـراح المشجج

ويتحدث الشنفري عن خروجه مع صاحب له وفيٍّ شجاع كمي ثم يفصل في ذكر فتكه بالأعداء واستعانته بالاسلحة في ذلك .

ومن فتكه في بني سلامان قاتلي أبيه قوله[1] في غزوة له عليهم وتنكيله بهم :

١ ـ كـأن قد فلا يغـررك مني تمكثي سلكت طريقـاً بـين يربـغ فالسرد

٢ ـ وإنـي زعيم أن ألـف عجاجتي على ذي كسـاء من سلامـان أو برد

٣ ـ وأمشي لدى العصداء أبغي سراتهم وأسلـك خلاً بين أرفاغ والسـرد

٤ ـ هـم عرفونـي ناشئـا ذا مخيلة أمشي خلال الـدار كالأسـد الورد

٥ ـ كأنـي إذا لم أمس في دار خالد بتيماء لا أهـدي سبيـلاً ولا أهدي

وهكذا نمضي مع فارس الصعاليك وعدائهم في تصوير هذه الغزوة الناجحة وكيف أنه باع نفسه للموت ولم يبال بتاتاً بما يلاقيه في سبيل إنقاذ عزمته فيهم قتلا وتنكيلاً . ومن الملاحظ على هذه الغزوات أنها كانت نابعة من نفسية الشنفري ولم يدخلها زيف أو مبالغة بل اعترف للشنفري عدوه قبل صعاليكه بالقتل والفتك والغزو وأهم ما برز في شعره كيف لا وهو الذي نشأ في حضن القتل والقتال ثم في بيئة فرضت عليه تقاليدها الدموية العنيفة .

ثانيا : الافتخار بالشجاعة

نشأ الشنفري على الجرأة وغرست فيه مبادىء الصعلكة في سني حياته المبكرة فليس من المستبعد أن يشب شجاعاً أبياً وقد كان فخوراً بشجاعته وجرأته وتحدث كثيراً عن ضروب الشجاعة التي أبداها في غزوه وحربه لبني سلامان الذين استعبدوه ولأنهم فرضوا عليه أن يكون هكذا في حياته وسيرته وصعلكته ونحن لا ننكر على

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٣٤

العصداء : أرض لبني سلامان

الشنفري حديثه عن شجاعته ذلك لأنها جاءت منسجمة مع نفسيته الثائرة المغامرة المصعلكة المستهينة في كل شيء المحتقرة لكل شيء ما عدا شيئا واحدا هو القتل والسلب والفتك .

من ذلك قوله مفتخرا بشجاعته وشجاعة رفاقه في غزوة :[1]

١ ـ سراحين فتيان كأن وجوههم	مصابيح أولون من الماء مذهب
٢ ـ ثلاثا على الأقدام حتى سما بنا	على العوص شعشاع من القوم محرب
٣ ـ فشن عليهم هزة السيف ثابت	وصمم فيهم بالحسام المسيب
٤ ـ وظلت بفتيان معي أتقيهم	بهن قليلاً ساعة ثم خيبوا
٥ ـ وقد خر منهم راجلان وفارس	كمي صرعناه وخوم مسلب

فإننا نجد هنا الافتخار جماعيا إذ أن الصعاليك كانوا يشعرون بوحدة متجانسة بعيدة عن الأثرة وقلما كان يخرج الصعلوك وحده للغزو بل كان يرافق رفقاء شجعانا له ، ثم عرج الشنفري على نتائج المعركة حيث ذكر أن رفاقه قد قتلوا كثيراً من المغزوين . وهذا يرجع لرباطة جأشهم وقوة نفوسهم .

ومن الشجاعة غير المألوفة لدى الشجعان أمثال الشنفري عدم مبالاته بما يحدث لجثته بعد الموت وذلك عندما طلب منه أعداؤه أن يختار قبره فقال لهم أرموني للضبع وهذا يدل على جرأة لا نظير لها وعلى رباطة الجأش وعلى تحدي الخصوم .

١ ـ لا تقبروني إن قبري محرم	عليكم ولكن أبشري أم عامر[2]
٢ ـ إذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري	وغودر عند الملتقى ثم سائري
٣ ـ هنالك لا أرجو حياة تسرني	سجين الليالي مبسلاً بالجرائر

فهو هنا يتحدى عدوه بأنهم انما فعلوا ذلك به بعد أن أصلاهم ناراً حامية وأذاقهم الويلات فليفعلوا ما شاءوا به ومن ضروب فخره قوله :

١ ـ خرجنا من الوادي الذي بين مشعل	وبين الجباهيات أنشأت سربتي

---

(١) الطرائف ص ٣٢

(٢) المفضليات ص ١٩٧

٢ ـ أمشي على الأرض التي لن تضرني لأنكى قوماً أو أصادف حمتي
٣ ـ أمشي على أين الغزاة وبعدها يقربني منها رواحي وغدوتي

فهو يتحدث هنا عن خروجه وقيادته لجماعته وفتكه بالعدو للسلب ثم يصرح إنما خرج لأحد أمرين إما انتقام من قوم وإما ملاقاة لمنيته وهو لا يبالي بكل تعب وجهد .

ولله دره عندما يضع تلك الكلمات القليلة في قالب جميل عذب مشرق في ثوب بهي نقي صفي ندي اذ يقول :

١ ـ إذا ما أتتني ميتتي لم أبالها ولم تذرخالاتي الدموع وعمتي[1]
٢ ـ وإني لحلو إن أريدت حلاوتي ومر إذا نفس الغروف استمرت
٣ ـ أبي لما أبى سريع مباءتي إلى كل نفس تنتحي في مسرتي

فهو هنا يقف في ذروة الاستشعار بالشجاعة الأدبية ثم يصور نفساً أبيا وروحا شجاعاً بعيدا عن الجبن والخوف ويظهر كيفية معاملته للأصدقاء .

ومن ضروب افتخار اعتزازه وفخره بأصله فضلاً عن شجاعته إذ ربط بين الشجاعة الشخصية والاصالة والحرية في معدنه إذ يقول عندما ضربته ابنة سيده موضحاً أصله وعنصره :

١ ـ ألا هل أتى فتيان قومي جماعة بما ضربت كف الفتاة هجينها
٢ ـ ولو علمت تلك الفتاة مناسبي ونسبتها ظلت تقاصر دونها
٣ ـ أليس أبي خير الأواس وغيرها وأمي ابنة الخيرين لو تعلمينها
٤ ـ إذا ما أروم الود بيني وبينها يؤم بياض الوجه مني يمينها

فإننا هنا أمام فخر قبلي في معناه ومبناه وهذا ما لم نألفه عن الشنفري الذي كان يعتز ويفتخر بشجاعته وفروسيته ولكن يبدو أنه هنا كان مضطراً لبيان أصله لهذه الفتاة المتكبرة المتغطرسة المتعالية عليه . إذ ربما كانت أسرته على شرف من الأصل في

(١) المفضليات ص ٢٠٧
استمرت من السرارة ، الغروف : المنصرف ، المباءة : الرجوع

النسب وأمه بنت الأجواد ولكن الثابت أن أمه كانت سبية وقعت في الأسر من بني سلامان مع الشنفري ولكن مولد الشنفري كان كأبناء الأحرار سواء بسواء . ومن افتخار الشنفري قوله من اللامية[1] :

١ ـ وليلةِ نحسٍ يصطلي القوس ربها وأقطعه اللائي بها يتنبل
٢ ـ وعشت على نعش وغطش وصحبتي سعار وإرزير ووجر وأفكل
٣ ـ فأيمت نسواناً وأيتمت إلدة وعدت كما أبدأت والليل أليل
٤ ـ ويوم من الشعري يذوب لوابه أفاعيه من رمضائه تتململ
٥ ـ نصبت له وجهي ولاكن دونه ولا ستر إلا الأتحمي المرعبل
٦ ـ وخرق كظهر الترس قفر قطعته بعاملتين ظهره ليس يعمل

معاني الكلمات : النحس : البرد الشديد ، يصطلي : يعاني ويقاسي اللهب وشدته ، يتنبل : يختار النبال ، الارزير : المطر الخفيف ، السعار : حر شديد ، الوجر : الخوف ، الأفكل : الرعدة ، آيم : قتل زوجها ، إلدة : أولاد ، أليل : ثابت الظلام ، الشعري : كوكب ، اللواب : اللعاب ، الكن : الساتر ، المرعبل : المقطع ، الخزق : الأرض الواسعة .

وهكذا نجد أن الشنفري يتخذ من شجاعته وافتراسه للأعداء نوعاً من أنواع الفخر ، وعلى الرغم من مخالفة الصعاليك لتقاليد المجتمع القبلي إلا أنهم كانوا شديدي الاباء ورفض الضيم حتى إن الشنفري يتحدث عن افتخاره عن عفة زوجته وذلك بقوله :

يقول مفتخرا بشرف وكرم وإباء زوجته[2] :

١ ـ ألا أم عمرو اجمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت
٢ ـ أميمة لا يخزي ثناها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت
٣ ـ فقد اعجبتني لا سقوطا قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت
٤ ـ كأن لها في الأرض نسياً تقصه إذا ما مشت وإن تحدثك تبلت

---

(١) الأمالي ص ٢٠٣

(٢) الأغاني والمفضليات وتاريخ الأدب العربي د . جندي

٥ ـ تبيت بعيد النـوم تهـدي غبوقها   لجارتهـا إذا الهـدية قلت

فهو هنا رغم الموضوع يتعلق بالمرأة إلا أنه أجاد وبرع في تصوير حبه لها وفخره بها وإعجابه بخلقها ولطيف كرمها في مواطن الحاجة والشدة .

ثالثا : العدوَ

يعد الشنفري أحد العدائـين العرب الثلاثة حتى ضرب به المثل في العدو فقيل أعدى من الشنفري[1] وقد ذكر صاحب الأغاني أن الشنفري قد ذرع خطوه ليلة قتل فوجدوا أول نزوة نزاها إحدى وعشرين خطوة والثانية سبع عشرة خطوة[2] وذكروا أنه ثالث ثلاثة في العدو هو وتأبط شراً وعمرو بن براق وقيل السليك بن السلكه[3] كان كذلك عداءً مشهوراً يضرب به المثل في العدو . حتى وإن الشنفري كان يفتخر بفرسه اليحموم في غزواته من ذلك قوله في فرسه :

ولا عيب في اليحمـوم غـير هزاله   على . أنـه يوم الهياج سمين
وكم من عظيم الخلـق عبـد موثق   حـواه وفيه بعـد ذاك جنون

فهذه صورة لائقة أضفاها الشنفري على فرسه اليحموم إذ أنه جواد ضامر الجسم إلا أنه شجاع يغلب الرجال ذوي الأجسام السمينة ولعل مما يزيد الصورة وضوحاً ما رواه صاحب المفضليات فإن أبا عمرو الشيباني روى الخبر الآتي :[4]

أغار تأبط شراً والشنفري الأزدي وعمرو بن براق على بجيلة ، فوجدوا بجيلة قد أقعدوا لهم على الماء رصداً ، فلما مالوا في جوف الليل قال لهم تأبط شراً إن الماء رصداً ، وإني لأسمع وجيب قلوب القوم قالوا والله ما نسمع شيئاوما هوإلا قلبك يجب ، فوضع يده على قلبه فقال والله لا يجب وما كان وجاباً قالوا فلا والله مالنا من ورود المـاء ، فخرج الشنفري فلما رآه الرصد عرفوه فتركوه فشرب ثم رجع إلى أصحابه فقال والله ما بالماء أحد ولقد شربت من الحوض فقال تأبط شراً بلى ولكن

---

(١) مجمع الأمثال للميداني رقم ١٢٥٩ ، ٢٦١٤
(٢) الأغاني جـ ١ ص ٦٠١
(٣) الطرائف الأدبية
(٤) المفضليات ص ٦٩

القوم لا يريدونك ولكن يريدونني ثم قال للشنفري إذا أنا كرعت من الحوض فإن القوم سيشدون علي فيأسرونني فاذهب كأنك تهرب ثم ارجع فكن من أصل ذلك القرن فاذا سمعتني أقول خذوا خذوا فتعال فأطلقني قال وقال لابن براق إنني سآمرك أن تستأسر للقوم فلا تنأ منهم ولا تمكنهم من نفسك ثم أقبل تأبط شراً حتى ورد الماء فلما كرع في الحوض شدوا عليه فكتفوه بوتر وطار الشنفري فأتى حيث أمره وانحاز ابن براق حيث يرونه فقال تأبط شراً يا بجيلة هل لكم في خير لكم هل لكم أن تأسرونا في الفداء ويستأسركم ابن براق فقالوا نعم فقال ويلك يا ابن براق إن الشنفري قد طار فهو يصطلي نار بني فلان وقد علمت الذي بيننا وبين أهلك فهل لك أن تستأسر ويأسروننا في الفداء فقال أما والله حتى أروز نفسي شوطا أو شوطين فجعل يسبق حتى قبل الجبل ثم يرجع حتى إذا رأوا أنه أعيا وطمعوا فيه اتبعوه ونادى تأبط شراً خذوا خذوا فذهبوا يسعون في أثره فجعل يطمعهم وينأى عنهم فخالف الشنفري رأي تأبط شراً فقطع وثاقه فلما رآه ابن براق قد قطع عنه انطلق وكر إلى تأبط شراً فاذا هو قائم فقال أأعجبكم يا معشر بجيلة عدو ابن براق أما والله لأعدونه لكم عدواً أنسيكموه ثم انطلق هو والشنفري . وهكذا نجد في هذه القصة تفصيلا عن عدو هؤلاء الصعاليك وكيف أنهم اتخذوا من هذه السرعة وسيلة للهرب وقد ساعدتهم خفة أجسامهم على التخلص من مأزق الوقوع في الأسر عند الأعداء وقد وصف تأبط شراً صاحبه الشنفري في عدوه بأنه طائر وأن عمرو بن براق إذا عدا فانه كالريح[1] وقد ورد في شعر الشنفري وصف لسرعة الصعلوك وأنه إذا ما عدا فإنه يسبق القطا الظامئة إلى الماء يقول :

وتشرب أساري القطا الكدر بعدما	سرت قرباً أحشاؤها تتصلصل
هممتُ وهمت وابتدرنا وأسدلت	وشمر مني فارط متمهل
فوليت عنها وهي تلوي لعقره	يباشره منها ذقون وحوصل[2]

وفي أخباره أيضا أنه كان يطير على الأزد على رجليه فيمن معه من فهم وكان يطير عليهم وحده أكثر ذلك ومن أخباره أيضا أنه خرج في ثلاثين رجلا ومعه تأبط شراً

(١) الأغاني ١٨/ ٢١٠ .

(٢) الأمالي ـ النوادر ٢٠٥

يريدون الغارة على بني سلامان وقد كان الشعراء الصعاليك يفتخرون بأنهم يعرفون دروب الصحراء معرفة الخبير بكل أطرافها ونواحيها وهذا الشنفري يتحدث مفصلا عن ذلك في لاميته :

وخرق كظهر الترس قفر قطعته بعاملتين ظهره ليس يعمل[1]
وألحقت أولاه بأخراه موفيا على قنة أقعى مراراً وأمثل
ترود الأراوى الصحم دوني كأنها عذارى عليهن الملاء المذيل
ويركدن بالأصال حولي كأنني من العصم أدفى ينتحي الكيح أعقل

فالشنفري في أبياته هنا يعتز برجليه اللتين أوصلتاه إلى الأماكن النائية للوعول التي صارت تألفه لكثرة مخالطته إياها واتصاله لها ومعاشرته لها وهذا بفضل خفة الجسم وسرعة الأرجل وهمة النفس في الوصول الى ما هو مرغوب غزواً وسلباً وهرباً من العدو .

ولعل موضوع العدو والسرعة عند الصعاليك كان عاملا فعّالا في تصميم الصعاليك على زيادة الغزوات والهرب عند الأزمات والخروج من الأماكن الوعرات عند اشتداد الأخطار .

رابعاً : الغزل

لعل الشنفري شاعر الجاهلية الوحيد الذي لم يخصص موضوعاً خاصاً للحديث عن المرأة غزلاً وهياماً وانما جاء حديثه عن المرأة عابراً ضمن موضوعات شعره المختلفة والأبيات التي وردت في الغزل أو في وصف المرأة كانت تتغنى بجمال المرأة الخلقي بعيداً عن إباحية امرىء القيس وعن تهتك وتصريح طرفة بن العبد في حصره أماني النفس في ثلاث رغائب هي :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عوّدي[2]
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكري إذا نادى المضاف محنباً كسيد الغضا نبهة المتورد

---

(١) أعجب العجب في شرح لامية العرب ص ٦٧ - ٦٩

(٢) ديوان طرفه

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهنكة تحت الخباء المعمد

فإن طرفة هنا يحصر أهداف الحياة في عناصر اللذة في غالبها وهي شرب الخمر والاستمتاع بالنساء في حين برز جانب إيجابي وهو نجدة الملهوف وحمايته وهذه غايات ربما كانت تشمل الكثير من شعراء الجاهلية في هذا المجال .

وكذلك نجد عند امرىء القيس الذي يعد بهيميا قد ارتكب كل ما خالف العرف النظيف في ذلك العصر الغابر حيث وصف مغامراته مع الأخوات والخليلات سواء أكن زوجات له أو عشيقات ولنستمع إلى بعض أحاديثه في هذا النطاق الغزلي .

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيري وارخي زمامه ولا تبعديني عن خباك المعلل

وقد صرح امرؤ القيس هنا بكل مباذله وانحلاله في تصوير اتصاله مع العشيقة . بل يصرح بما هو أكثر من ذلك حيث يقول [1]

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالاً على حال
فقالت سباك الله إنك فاضحي ألست ترى السماء والناس أحوالي
فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
فلما تنازعنا الحديث واسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال
فعدنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أي اذلال

حقا إنها صورة مزرية لا تليق بالشرف والذوق العربي الكريم وهي تمثل ناحية الاباحية المطلقة في شعر امرىء القيس المتهتك اللاهي العابث الذي لم يعرف الحشمة والخلق السليم أما شاعرنا الشنفري فهو رغم جرائم القتل غير الأخلاقية بسبب أو بدون سبب فانه قد ترفع عن مثل هذه الصور الخليعة الرخيصة السمجة بل صور المرأة صورة مشرقة كريمة أبية وميضة بل هو منسجم إلى حد كبير مع الذوق

---

(1) ديوانه

الاسلامي الكريم من ذلك قوله في وصف المرأة ضمن قصيدته التي قتل فيها قاتل أبيه .

قال الشنفري[1]

١ ـ ألا أم عمـرو أجمعـت فاستقلت	ومـا ودعـت جيرانهـا إذ تولت
٢ ـ وقـد سبقتنـا أم عمـرو بأمرها	وكانـت بأعنـاق المطـي أظلت
٣ ـ بعيني ما أمست فباتت فأصبحت	فقضـت أمـوراً فاستقلـت فولت
٤ ـ فواكبداً على أميمـة بعدما	طعمـت فهبهـا نعمـة العيش ذلت
٥ ـ فيا جارتـي وأنـت غـير مليمة	إذا ذكرت ولا بذات تقلت

فالشنفري يتجه اتجاها اخلاقيا في تصوير جمال المرأة المعنوي إذ أنها امرأة محتشمة كريمة الخلق رفيعة القدر محمودة السيرة ، عزيزة الجانب وهي في غاية الذوق والأدب تربيةً وأصلاً .

ثم يكمل الشنفري وصف المرأة فيقول :

٦ ـ لقـد اعجبتنـي لا سقوطـا قناعها	إذا ما مشـت ولا بذات تلفت
٧ ـ تبيت بعيد النـوم تهـدي غبوقها	لجارتهـا إذا الهـدية قلت
٨ ـ تحـل بمنجـاة من اللـوم بيتها	إذا ما بيوت بالمذمـة حلت
٩ ـ كان لهـا في الأرض نسيـاً تقصه	على امهـا وإن تكلمـت تبلت
١٠ ـ أميمـة لا يخـزي نثاهـا حليلها	إذا ذكر النسـوان عفـت وجلت

ويواصل الشنفري بخياله الرفيع وألفاظه الدقيقة ومعـانيه البديعة ونفسه الأبية وصف السيدة المصونة إذ أنها محجبة وهي تسير على تؤده وغير نجيلة إذ تؤثر جارتها بالزاد وهي في نجوة من اللوم والكلام الفاحش وإذا سارت في الدرب فهي تسير وهي حيية ولا تكمل كلامها معك خجلا وتقطع حديثها وتوجز في كلامها ثم إن حديث هذه المرأة لا ينزل من شأن زوجها إذ أن حديثها فيه الأدب والوقار والأخلاق الحميدة .

---

(١) المفضليات ص ١٩٤

ويقول كذلك[١] .

اذا هو أمسى آب قرة عينه   مآب السعيد لم يسل أين ظلت
فرقت وجلت واسبكرت وأكملت   فلو جن إنسان من الحسن جنت

فالشنفري بهذا التصور الرفيع من نفسه قد وصل إلى الذروة القصوى في تصوير خفر النساء وعفتهن إذ أن زوجها إذا رجع إلى منزله الذي هو مكان سكن روح وارتياح الفؤاد وطمأنينة الشعور إنه يجد زوجته ملازمة بيته لا تبرحه وإذا خرجت فانها تخرج وهي مملوءة ثقة وقد قال الأصمعي في هذه الأبيات بأنها أحسن ما قيل في خفر النساء وعفتهن وأبيات أبي قيس بن الأسلت الذي يقول فيها .

ويكرمها جاراتها فيزرنها   وتعتل عن إيتانهن فتعذر
وليس بها أن تستهين بجارة   ولكنها من ذاك تحيا وتحقر
وإن هي لم تبرز لهن أتيتها   نواعم بيض مشيهن التآطر

ولا شك أن لحمة هذه الأبيات الغزلية هي التغني بجمال المرأة المعنوي إلا البيت الأخير فهو تغن بجمالها الحسي وكثيراً ما كان الشنفري يترفع عن نزوات الشباب وخطرات الصبا إذ أنه لا ينزل إلى مستوى الشباب اللاهي العابث في معاملة النساء وقد ورد في لاميته ما يوضح ذلك إذ يقول[٢]

ولا جبأ أكهى مربّ بعرسه   يطالعها في شأنه كيف يفعل
ولا خالف دارية متغزل   يروح ويغدو داهنا يتكحل

فهو يصرح بأنه شجاع وليس جباناً شغلته النساء عن المعالي ولا يقيم في داره بجوار النساء بل ينطلق إلى المغامرات الصعلوكية تاركا الدهن والطيب للغزليين من الرجال وقد اتخذ الشنفري الحوار مع المرأة طريقاً في ايضاح أفكاره وترك عذلها ولومها إلى فعل ما يريد يقول في ذلك

---

(١) آب : رجع ، أين ظلت : لانها لا تبرح بيتها ، فرقت : دقت محاسنها ، جلت : عظمت في قدره ، اسبكرت ، طالت وامتدت ، واكملت ، تامة الخلق والخلق

(٢) .... الخالف : المتخلف ، الدارية ، صاحب الدار ، المتغزل : الذي يشغل نفسه بالنساء

دعيني وقولي بعدما شئت إنني سيغدى بنعشي مرة فأغيب

فإنه هنا يمزج المغامرة بالحكمة الخالدة بذكر الموت في عذل زوجته له بترك المخاطر ولكنه يربط هذه المخاطر بالموت فتهون عليه نفسه كما هانت عليه الحياة . وقد كان يتحدث عن مطامحه مستقبلاً وعندئذ يخبر زوجته بنيته تلك بعدما سلك طريق الحوار من قبل .

كأن قد فلا يغررك مني تمكثي سلكت طريقاً بين يربع فالسرد[1]
وإني زعيم أن ألف عجاجتي على ذي كساء من سلامان أو برد

فهو هنا يوضح أهدافه والطرق التي سوف يسلكها غير مكترث بالأخطار المحدقة الواقعة له .

ثم يخاطب زوجته خطاباً بأنه ليس من الذين يلازمون العجائز أو النساء لاستماع حديثهن فيقول .[2]

لا تحسبيني مثل من هو قاعد على عثة أو واثق بكساد
إذا انفلتت مني جواد كريمة ثبت فلم أخطىء عنان جوادي

وقد كان شعور الشنفري قاسياً في نظرته للمرأة حيث أنه أرادها أن تسقط من حسابها المشاعر الانسانية وتمثل ذلك في لومه لأمه عندما توفي أخوه الصغير فقال :

ليس لوالدة همها ولا قبلها لابنها دع دع
تطوف وتحذر أحواله وغيرك أملك بالمصرع

إذ ينبغي أن يكون الموقف من الشنفري غير هذا الموقف لأن للمرأة مشاعر أرق من الرجل وخاصة عند موت وليدها وتمثل عدم اهتمامه بالمرأة حتى ولو كانت هذه المرأة حبيبة إليه ونجد هذا في ثورته عندما لطمته ابنة سيده عندما أراد أن يقبلها وقيل قال لها اغسلي رأسي يا أخيه .

(١ ، ٢) الطرائف ص ٣٤ ، جبأ : جبان ، اكهى : سيء الخلق ، مرب الذي يبقى في البيت مع النساء ، شانه : أمره

فانكرت أن يكون الشنفري أخاها فأخبرت أباها فهم بقتله ولكنه سمعه يقول إثر اللطمة .[1]

الا هل أتى فتيان قومي جماعة ... بما لطمت كف الفتاة هجينها
ولو علمت تلك الفتاة مناسبي ... ونسبتها ظلت تقاصر دونها
أليس أبي خير الأواس وغيرها ... وأمي ابنة الخيرين لو تعلمينها
إذا ما أروم الود بيني وبينها ... يؤم بياض الوجه مني يمينها

فهو يترفع على هذه الفتاة المتغطرسة ولا يقبل إذلالها ولو كانت مشاعر الشنفري أمثال مشاعر ابن ابي ربيعة وكثير عزه وجميل ليقبل هذه اللطمة بسماحة وبشاشة ولكن شعوره كان قاسياً ورفض مذلة النساء . ثم قارن بين نسبه ونسبتها وهو ابن الأجواد الأخيار وعندما علم أبوها بهذا الخبر عزم على تزويجه ابنته قعسوس من الشنفري رغم خطر قتله من قبيلته .

ويصرح أخيراً بانه إما أن يكون زوجاً صالحاً مرغوباً فيه لشجاعته أو أن تخليه زوجته لانها لا تتزوج إلا الشجاع الأبي وظهر ذلك في قوله لزوجته :

إذا أصبحت بين جبال قو ... وبيضان القرى لم تحذريني[2]
فإما أن تودينا فنرعى ... أمانتكم وإما أن تخوني
سأخلي للظعينة ما أرادت ... ولست بحارس لك كل حين
إذا ما جئت ما أنهاك عنه ... فلم أنكر عليك فطلقيني
فأنت البعل يومئذ فقومي ... بسوطك لا أبالك فاضربيني

فهو يطالبها صراحة أن تقبل به زوجاً كريماً شجاعاً جريئاً وإذا لم تتوفر فيه هذه الشروط فيطلب منها أن تطلقه أو تضربه بالسوط . وهذا ما لا نألفه عند أي من شعراء الجاهلية .

خامساً : العفة وإباء الضيم والترفع عن الدنايا

رغم أن الشنفري كان ذا ميول نحو الفتك والقتل إلا أنه كان عفيفا في نفسه

(١ ، ٢) الطرائف الأدبية ص ٤١

مترفعا عن الضيم والذل حتى لو كان ذلك سبباً في القضاء عليه لذا كان شعراء الصعاليك اجمالا يترفعون عن الدنايا ويؤثرون الآخرين على أنفسهم في لقمة العيش ويتضح هذا في شعر معظمهم ابتداء من زعيمهم عروة بن الورد إلى أصغرهم من ذلك ما يقوله عروة في أشعاره حتى إنهم كانوا يلتقون عند فكرة واحدة في فهم الحياة فإما أن تكون الحياة كريمة رفيعة لهم فيها مكانة اجتماعية أو الموت يقول عروة بن الورد[1] .

فللموت خير للفتى من حياته فقيراً ومن مولى تدب عقاربه

ويقول :

فقلت له ألا أحي وأنت حر ستشبع في حياتك أو تموت

ويقول :

فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أوتموت فتعذر

وهكذا انطلاقة فكرية رائعة من زعيم الصعاليك في رسم الخطة التي ينبغي أن يسير عليها الصعاليك إما حياة كريمة وإما الموت لأن الموت خير من حياة الذل والامتهان الاجتماعي والفقر المادي الذي وصل إليه حال الصعاليك .

ولم يكتف الصعاليك بالتصريح بهذه الآراء الاجتماعية بل امتازوا أنهم كانوا يؤثرون غيرهم في طعامهم يقول عروة :

إني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي انائك واحد

أتهزأ مني ان سمنت وأن ترى بجسمي مس الحق والحق جاهد

أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

هذه الأفكار تمثل المثل العليا في إطعام المساكين والمحتاجين إذ يفضل أن يهدي قراه وطعامه إلى هؤلاء الجائعين ويبقى هو طاوياً على البطن على الحوايا وقلما نجد هذا في شعر أي من شعراء الجاهلية وهذا الذي دفع بعض خلفاء بني أمية أن يعجب بكرم عروة ويفضله على حاتم طيء .

---

(١) ديوان عروة ١٥٠ - ١٥١

ولم تكن غزوات هؤلاء الصعاليك على الأغنياء الكرماء بل كان غزوهم على الأغنياء البخلاء الذين كانوا لا يرحمون هؤلاء الفقراء والمحتاجين والمساكين والضعفاء والذين كان وضعهم الاجتماعي سيئاً يدعو للشفقة والرحمة ولكن الصعاليك رغم ندرة ما بأيديهم من الزاد والطعام كانوا يؤثرون غيرهم ويشركونهم في زادهم وطعامهم .

أما إباء الشنفري فقد تمثل في ترفعه عن أخذ لقمة العيش بذل وفضّل الجوع حتى الموت من أن يأخذ من ذوي الفضل ما يسد رمقه وتظهر عفة الشنفري في أكثر من مظهر .

فاذا وضع الزاد فانه يأكل بأدب ووقار ولا يتعجل كباقي الصعاليك أو الآكلين وهذا ظاهر في قوله[1] :

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل
وما ذاك إلا بسطة عن تفضل ... عليهم وكان الأفضل المتفضل

فهذه صورة جميلة لتصوير قناعة الشنفري وترفعه وعفته ثم تظهر عفته واباؤه في موقف أشد وضوحاً وهو موقف بين الحياة والموت إنه موقف الاباء المطلق والاصرار على عدم أخذ لقمة العيش من أحد وإيثار الموت على ذلك يقول في ذلك[2] :

أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
وأستف ترب الأرض كي لا يرى له ... علي من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب ... يعاش به إلا لدي ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي ... على الضيم إلا ريثما أتحول
وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت ... خيوطة ماري تغار وتفتل
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ... أذل تهاداه التنائف أطحل
غدا طاوياً يعارض الريح هافيا ... يخوت بأذناب الشعاب ويعسل

---

(١) ذيل الأمالي ص ٢٠٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٤ .

فإن النظرة المادية للطعام من جانب هذا الشاعر الصعلوك آثرت الجوع والظمأ على الطعام مأكولاً بذل واحتقار .

ثم هناك جانب آخر بارز في عفة وترفع الشنفري حيث أنه لا يحسب حساباً لما يقيم أوده عندما تدعو الضرورة والحاجة إلى المعالي وارتكاب المخاطر بل يقذف نفسه في أتون المعركة وسعيرها يقول[1]

أنا السمعُ الأزل فلا أبالي ولو صعبت شناغيب العقاب
ولا ظمأ يؤخرني وحر ولا خمص يقصر من طلاب

نجد هنا الاباء والشجاعة والحماسة بأدق معانيها وأبرع ألفاظها وأقرب مراميها وأبعد ما تكون عن مؤخرات النفس الصعلوكية الى الأهداف المرتجاة والأماني المبتغاة .

وكثيراً ما أوضح الشنفري طموحه وإباءه لزوجته او محبوبته في عذله عن الكرم تارة أو على المغامرة تارة أخرى وعلى الاقدام والشجاعة تارة ثالثة ومن ذلك قوله لزوجته :

دعيني وقولي بعدما شئت إنني سيغدى بنعشي مرة فأغيب

ومن أمثلة عذله زوجته وترفعه عن الدنايا ورغبته في ترك هذا العالم الأرضي والمألوف إلى عالم آخر أكثر إنساً وطمأنينة للنفس الصعلوكية قوله :

إذا ما أتتني ميتتي لم أبالها ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي
وإني لحلو إن أريدت حلاوتي ومر إذا نفس العزوف استمرت
أبي لما آبى سريع مباءتي إلى كل نفس تنتحي في مسرتي

على أن الشنفري كان عفيفا خلقيا ومن سمات هذه وألوانها ومظاهر اعجابه بالمرأة العفيفة لأنه صبغ على الإباء وعدم الانحلال والتخنث[2] .

---

(١) المفضليات ص ٢٠٠
(٢) الطرائف الأدبية

فيا جارتي وأنت غير مليمة إذا ذكرت ولا بذات تقلت
لقد اعجبتني لا سقوطاً قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت
تبيت بعيد النوم تهدي غبوقها لجارتها إذا الهدية قلت
كأن لها في الأرض نسيا تقصه على أمها وإن تكلمك تبلت
أميمة لا يخزي نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت
إذا هو أمسى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسل أين ظلت

فهذا غزل لا عهد لنا بمثله في غزل الجاهلية إلا ما نجده عند بعض الشعراء الذين طهرت نفوسهم وتهذبت أخلاقهم ولكن الشنفري يعد بحق شاعراً عفيفا في غزله وحبه .

ومن مظاهر عفته ترفعه عن ايذاء الفتاة التي لطمته بل تركها وذهب مغاضباً لأبيها وهذا ما لا نألفه عند شعراء الصعاليك الذين كانوا يثورون ويفتكون ويغزون ويسلبون ولكنه هنا أمام موقف إنساني في التسامح والعفو عن هذه الفتاة يقول ردا على الفتاة مبيناً عفته وترفعه وشرفه :

ألا ليت شعري والتلهف ضلة بما ضربت كف الفتاة هجينها[1]
وليو علمت قعسوس أنساب والدي ووالدها ظلت تقاصر دونها
أنا ابن خيار الناس بيتا ومنصبا وأمي ابنة الأحرار لو تعرفينها

وهكذا نجد أن الشنفري كان ذا نفس عالية صبغت بالنظرة الدموية حينا ثم وجد بها النظرة العفيفة الكريمة لنفسه ومعاملته لأقرانه ثم لذاتيته خاصة .

سادساً : الحكمة

حلّق الشنفري في أجواز السماء بحكمته الحربية التي كانت ممثلة لنفسيته المغامرة الجبارة حيث كانت صورة لتلك المخاطر التي خاضها بحيث جاءت ناطقة بصدق عما في نفسه ، سواء أكانت في الغزوات والفتك أو في المثل الأخلاقي الرفيع في الاباء والترفع عن الدنايا وقد يتشابه ما جاء به الشنفري من حكم مع حكم المتنبي

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٤١

شاعر الحروب الاسلامية العظيم الذي يعد بحق أعظم شاعرأنجبته العربية وقد كانت حكم الشنفري على ألوان متعددة بحيث صبغت أقوال هذا الصعلوك الثائر على الظلم في أثواب بهية تقبلها النفس بارتياح من ذلك قوله :

دعيني وقولي بعدما شئت أنني سيغدي بنعشي مرة فأغيب

فهو هنا يضع فكرة الموت أمام ناظريه ولا يبالي بهذه الحياة ويواجه الأخطار والتحديات وربما كان هذا البيت في روعة حكمته شبيها بحكم العربية وشاعرها الفارس المتنبي الذي يقول :

وإذا كان ليس من الموت بد فمن العار أن تموت جبانا

وفي نفس حكمته جاء تعبيره عندما طلب منه بنو سلامان أين يود أن يقبروه فرد عليهم أن يرموه للضبع فقال :

لا تقبروني إن قبري محرم عليكم ولكن أبشري أم عامر[1]
اذا احتملوا رأسي وفي الرأس اكثري وغودر عند الملتقى ثم سائري
هناك لا أرجو حياة تسرني سجين الليالي مبسلاً بالجرائر

هنا نفس طموح ومثالية أخلاقية في قوة التصوير وبراعة التعبير وسمو المعاني وفخامة الاسلوب ودقة الوفاء بالغرض في هذه الايحاءات المتوالية من تسلسل الأفكار المنطقية في الوصول بالسامع إلى أن الموت حق وشبيه بهذا قول أبي الطيب : ـ[2]

إن القتيل مضرجاً بدموعه مثل القتيل مضرجاً بدمائه

وقول المتنبي :

وإنا لنلقي الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

فإن المتنبي يلتقي مع الشنفري في هذه الحكم الحربية والمشاعر القوية في النظر

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٣٢ نفس المصدر ص ٣٦

(٢) الحرب في شعر المتنبي د. محمود أبو ناجي ص ٦٠٢

للحياة وضرورة التزام جانب الصداقة في مواجهة تحدياتها وأخطارها ومن روائع حكم الشنفري قوله في الحث على الصبر حتى ولو كان هذا الصبر يؤدي إلى الموت ومن ذلك قوله من لاميته[1] .

أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الارض كي لا يرى له ... علي من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب ... يعاش به إلا لدي ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي ... على الضيم الا ريثما أتحول
وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت ... خيوطة ماري تغار وتفتل
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ... اذل تهاداه التنائف أطحل

ومن حكمته التي تتوافق مع مزاجه وطباعه في كراهية حياة الخنوع والتكاسل من ذلك قوله :

يا صاحبي هل الحذار مسلمي ... أو هل لحتف منية من مصرف
إني لأعلم أن حتفي من التي ... أخشى لدى الشرب القليل المترف

فإن الشنفري هنا يضع حقيقة الموت أمامه لصبره البعيد ثم ينطلق من هذا المفهوم مستهينا بكل شيء طامعاً بتحقيق كل شيء .

ومن جميل حكمته قوله في عدم الاغترار بالمظاهر :

وكم من عظيم الخلق عبد موثق ... حواه وفيه بعد ذاك جنون

وهذا شبيه إلى حد كبير بقول المتنبي :

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم

ومن أصدق ما قيل في الحث على الاغتراب وترك المهانة قول الشنفري :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزل

---

(١) القالي ـ النوادر ٢٠٤ .

لعمرك ما بالأرض ضيق على امرىء   سرى راهبـا أو راغبـا وهـو يعقل

فإن هذين البيتين يشبهان قول الامام الشافعي رضي الله عنه :

سافر تجد عوضـاً عمـن تفارقه   وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

وقول الآخر :

لعمـرك ما بالأرض من ضيق على امرىء   ولكن اخلاق الرجال تضيق

وتعد مقدمة قصيدته اللامية :

أقيمـوا بني أمـي صدور مطيكم   فإنـي إلى قوم سواكم لأميل

فهي من أروع المقدمات وقد عدها صاحب الأمـالي أنهـا من المقدمـات في الحسن والفصاحة والطول [1] ومن هذا نلمس صدق الشنفـري في حكمـه إذ أنهـا عبرت عن نفسيته المضطربة الحائرة من جهة ثم وضحت الطريق أمام الصعـاليك الآخرين من ضرورة عدم الحرص على الحياة والترفع عن الدنايا والاكتفاء بالقليل من الزاد واتخاذ حيوان الصحراء صديقا وفياً وعدم مجاورة أهـل الظلـم والبـطش والفرار إلى بعيد أو إلى الارتحال والاغتراب والنأي طلباً للكرامة والعزة الشخصية .

فلا بدع إذن أن جاءت حكمة هذا الصعلوك صادقة كل الصدق فنياً وتعبيريا ونفسيا وعقليا .

سابعاً : شعر المراصد

ساعدت البيئة الجغرافية الصحراوية الشعـراء الصعـاليك من اتخـاذ بعض مظاهرها أماكن للاختفاء والهرب والترقب والترصد إذ أن وجود الجبال والكهـوف والمغارات والانحناءات والوديان والمنخفضات والمرتفعات ساعدت كل هذه العوامل لفرار الصعاليك على أن يتخذوا ويشنوا منها الغارات أو ينتظروا القوافل لسلبهـا ونهبها عندما يحل الليل المظلم وفي مجمع الأمثال للميداني مثل للعرب يقول :

---

(١) الأمالي ط ص ١٥٦

(١) « الليل أخفى للويل » فقد اتخذوه ستاراً لشن غاراتهم وتحقيق أطماعهم وهم قوم لا يعرفون الاستغراق الطويل في النوم بل إنهم ينامون قليلا ريثما تحل الظروف المناسبة للهجوم من ذلك ما يقوله أبو خراش في وصف مرقبه(٢)

لست لمرة إن لم أوف مرقبة يبدو لي الحرث منها والمقاضيب

فإن هذا المرصد يطل على الأعداء ويشرف على زراعة القوم والبيت في اللسان

وقد أمر زعيم الصعاليك عروة بن الورد أصحابه أن يتخذوا من المراصد العالية أماكن للاختفاء والاغارة ثم إنه كان يرسل مريديه من الصعاليك للغزو يقول بعد أن وقف في مرصد شامخ يرقب الابل والنعم المارة عليه وقد أرسل أحد أعوانه للاغارة :(٣)

إذا ما هبطنا منهلاً في مخوفة بعثنا ربيئاً في المرابي كالجزل
يقلب في الأرض الفضاء بطرفه وهن مناخات ومرجلنا يغلي

فإن وقوف عروة وأصحابه في برج المراقبة والرصد هنا ساعده على الاستيلاء على الابل التي كانت تعبر السبيل مارة به . أما بقية الصعاليك فقد وصفوا أنفسهم واستعدادهم للكر والفر وهم مستعدون للاغارة كالسهم يقول أبو خراش الذي كان نحيف الجسم ضعيف البنية(٤) .

يظل في رأسها كأنه زلم من القداح به خرس وتعقيب
سمح من القوم عريان أشاجعه خف النواشر منه والظنابيب

ويصف ذو الكلب المرقبة التي يختبيء فيها بأنها شاخة لا يصلها أحد من الناس وهو يترصد بها القوافل كما ينزل الماء بسرعة فائقه يقول :

ومرقبة يحار الطرف فيها تنزل الطير مشرفة القذال

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ٢ ر ١٢٠
(٢) الشعر والشعراء حـ ٢ ص ٦٦٤
(٣) ديوان عروة بن الورد ١١١ ـ ١١٢
(٤) الأمالي حـ١ ص ٣٨ ، شرح أشعار الهذلية ٢٣٧ ، الطرائف الأدبية ص ٣٧

أقمت بريدها يوماً طويلا ولم أشرف بها مثل الخيال
ولم يشخص بها طرفي ولكن دنوت تحدر الماء الزلال

أما الشنفري فانه يأتي بصورة رائعة جميلة في وصف برج الرصد عندما صعد إليها ويقول يعجز عن الوصول إليها أمهر الصيادين الذين عودوا كلابهم على تسلق الجبال المنيعة القوية العالية الشامخة فيقول :

ومرقبة عنقاء يقصر دونها أخو الضروة الرجل الخفي المخفف
نميت إلى أعلى ذراها وقد دنا من الليل ملتف الحديقة أسرف
فبت على حد الذراعين محدباً كما يتطوى الأرقش المتقصف
قليل جهازي غير نعلين أسحقت صدورهما مخصورة لا تخصف
وملحفة درس وجرد ملاءة اذا انجمت من جانب لا تكفكف

فقد نقل لنا الشنفري صورة معبرة عن مكثه فوق هذه المرقبة التي تعد برجاً للمراقبة ومرصداً للغادي والرائح وكيف أنه استفاد منها في شن غاراته وقد اتخذ من نعليه الممزقتين وقد تشكل بشكل أفعى في نومه وهذا دليل على ضعفه وهزاله .

أما برج المراقبة عند أستاذ الشنفري تأبط شراً فقد كانت هذه المرقبة تشبه العجوز الشمطاء المجعدة حتى إذا جن الليل بدأ في إنفاذ أهدافه يقول :

ومرقبة يا أم عمرو طمرة مذبذبة فوق المراقب عيطل
نهضت إليها من جثوم كأنها عجوز عليها هدمل ذات حيقل

وقد ذكرت أن البيئة الصحراوية قد ساعدت الشعراء الصعاليك على اتخاذ بعض المناجي والجبال والوديان أماكن للاختفاء ولعل أبراج المراقبة تكاد توجد في معظم أشعار هؤلاء الصعاليك لما لها من أهمية حيوية في تنفيذ الخطط وانجاز الأهداف والابتعاد عن أعين الناس .

وعندمقتل الشنفري رثاه أستاذه تأبط شراً بقصيدة حارة ذكر فيها أبراج المراقبة والمراصد التي كان يتخذ منها الشنفري أمكنة للقفز والغزو والسلب والقتل يقول تأبط شراً مرثية تعد من أجمل المراثي الصعلوكية يرثي فيها الشنفري ويذكر ترقبه في المراصد

على الشنفـري ساري الغمام فرائح غـزير الـكلى وصيب الماء باكر
فإن تك نفس الشنفـري حم يومها وراح له ما كان منـه يحاذر
قضى نحبـه مستكثـرا من جميله مقـلاً من الفحشـاء والعـرض وافر
يفـرج عن غمـه الـروع عزمه وصفـراء مرنـان وأبيض باتر
ومرقبـة شماء أقعيت فوقها ليغنـم غازٍ أو ليدرك ثائر
وأجمـل موت المرء إذ كان ميتا ولا بد يومـاً ـ موتـه وهـو صابر

فقد عدد تأبط شراً خصال تلميذه الوفي الشنفري وهي كرمه ونبل أخلاقه ثم ذكر جلوسه وترصده فوق المرقبة العالية للغزو وأخيراً ختم تأبط شراً رثاءه بحكمته الخالدة وهو الموت بصبر الرجال وهكذا فقد كانت أبراج المراقبة والرصـد عوامـل مساعدة للشعـراء الصعـاليك ذكروهـا في شعرهـم واتخذوهـا أداة لتنفيذ مآربهـم وأغراضهم في الفتك والسلب والرصد .

الفصـــل الرابـع

الخصائص الفنية في شعره

١ ـ التخلص من المقدمة الغزلية

٢ ـ الانعتاق من الشخصية القبلية

٣ ـ بروز الظاهرة القصصية

٤ ـ الواقعية في شعره

٥ ـ التزام المذهبية في شعره

أولاً : التخلص من المقدمة الغزلية

من الخصائص التي تميز بها شعر الشنفري في قصائده ، عدم وجود مقدمة غزلية ، أو ذكر الأطلال ، كعادة الشعراء العرب في الجاهلية ، ذلك لوجود حوائل تمنع مثل هذه الشكليات ، من ذلك أن معظم قصائد الصعاليك كانت مقطوعات لا قصائد ،[1] بسبب عدم استقرارهم من جهة ، ولأنهم مشغولون بالإغارة والتربص بالقوافل من جهة أخرى .

وقد عبر عن هذا الاضطراب في حياة الصعاليك شاعر صنعلوك من صعاليكهم وهو عمرو بن براقة في أبيات له تصف حياة هؤلاء المغامرين الشجعان[2] :

تقول سليمى لا تعرض لتلفة	وليلك عن ليل الصعاليك نائم
وكيف ينام الليل من جل ماله	حسام كلون الملح أبيض صارم
غموض اذا عض الكريهة لم يدع	له طمعاً طوع اليمين ملازم
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم	قليل اذا نام الخلي المسالم

فإن صعلوكنا هنا يفصل الحديث ويقول إن حياة هؤلاء الصعاليك دوماً في تربص وترقب وترصد بعكس حال الصعلوك الخامل الذي يقضي ليله نائماً دون سعي الى تحقيق أماني الصعلوك المغامر على أني لم أجد في شعر أي من شعراء الصعاليك حديثاً عن ذكر الأطلال ولو ذكراً عابراً ، ذلك لأن أشعار هؤلاء الصعاليك كانت تأتي عفو الخاطر على لسانهم دون النظر الى تجويد هذه القصائد ،

---

(١) الحياة العربية في العصر الجاهلي د . صوفي ص ٣٠٧

(٢) الأمالي ٢/١٢٢ والأغاني ٢١/ ١٧٥

كما كنا نألف لدى شعراء الجاهلية الكبار أمثال امرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى وغيرهم . من ذلك ما نظمه السليك بن السلكة في غارة مع رفاق له على غنيمة قريبة وذلك في قوله[1] :

يا صاحبي ألا لاحي في بالوادي   الا عبيد وآم بين أذواد
أم تعدوان فإن الريح للعادي   انتظران قليلاً ريث غفلتهم

فإن هذين البيتين عبارة عن اشارة مفهومة من السليك لرفاقه بالاستعداد للغزو والنهب إذ لم تكن عند هذا الصعلوك فرصة للتأني في اجاده شعره أما شاعرنا الشنفري فقد كان يسير على نهج رفاقه الصعاليك في عدم التغزل في بداية قصائده أو عدم التعرض لذكر الأطلال ، اللهم الا بعض الأبيات الغزلية في قصيدته التائية ـ والتي امتدح فيها عفة وحشمة وأخلاق زوجته ، وكل الذي ذكر في مجال النساء كان في معرض الرد على زوجته عندما لامته على مغامراته وارتكابه الأهوال والمخاطر وتحمل المشاق .

وقد بدأ قصيدته بحوار فريد فيه كل خصائص التذوق الأدبي والسمو البياني وقد كان هذا تقليداً للخط العام الذي خطه سيد الصعاليك وزعيمهم عروة ابن الورد والذي قال[2] .

ذريني أطوف في البلاد لعلني   أخليك أو أغنيك عن سوء محضر

ويقول :

ذريني ونفسي أم حسان إنني   بها قبل أن أملك إلبيع مشتري
أحاديث تبقى والفتى غير خالد   اذا هو أمسى هامة فوق صير
تجاوب أحجار الكناس وتشتكي   الى كل معروف تراه ومنكر

وعلى هذا النهج سار شاعرنا الصعلوك الشنفري إذ أنه لم يبدأ بغزل ولم يذكر الأطلال التي شغفت قلوب شعراء الجاهلية وقلما نجد قصيدة للشعراء الكبار

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢١٥

(٢) ديوان عروة ص ٦٦

في الجاهلية الا وتبدأ بالغزل ثم يعطف الشاعر على وصف ناقته ثم يصف الرسوم الخوالي مما دعا شاعراً عباسياً مثل أبي نواس أن يثور على هذه التقاليد في لوم الشعراء على هذا السلوك الفني :

قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ما ضر لو كان جلس

وقد اتخذ الشنفري من نظرته للحياة واحتقاره لها واستهانته بكل مغرياتها وأعراضها أداة للاقدام والقتال والفتك من ذلك ما يقوله صعلوكنا الشنفري في غزوة له مع رفاق على العوص من بجيلة فقتلوا منهم واستاقوا إبلهم يقول الشنفري محذراً زوجته بعدم التعرض له لأنه عازم على الغزو وليس عليها بأس في ارتكابه الأخطار وقد بدأ شعره في قصيدته بالتحذير الممتزج بالحكمة يقول[1] :

دعيني وقولي بعدما شئت إنني سيغدى بنعشي مرة فاغيب

وبعد هذه المقدمة يفصل أحوال الغارة تفصيلاً رائعاً عوضاً عن ذكر الأطلال والناقة كعادة شعراء الجاهلية . وفي قصيدته التائية يذكر زوجته ويذكر محاسنها ويزيدنا شيئاً من التفصيل عن وفاء وجمال وأخلاق هذه الزوجة فيقول[2] :

أرى أم عمرو أجمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت

ويزيدنا الشنفري إيضاحاً باكمال هذه الصورة الفنية الرائعة في حواره مع زوجته بشأن تركه ونفسه وذلك في بيان عزمته وقوته و نيته بما يفعله مستقبلاً وارتكابه أهوالاً صعاباً :

كأن قد فلا يغررك مني تمكثي سلكت طريقاً بين يربع فالسرد
واني زعيم أن ألف عجاجتي على ذي كساء من سلامان أو برد
وأمشي لدى العصداء أبغي سراتهم وأسلك خلاً بين أرفاع فالسرد
هم عرفوني ناشئاً ذا مخيلة أمشي خلال الدار كالأسد الورد
كأني إذا لم أمس في دار خالد بتيماء لا أهدي سبيلاً ولا أهدي

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٣٤
(٢) المفضليات ص ١٩٤ والأغاني ص ٦٠٨

فهو هنا يخاطب زوجته بأنه سوف ما قد عزم عليه من الغزو ويزعم بأنه بطل وقائد في حركته وغزواته .

وما ذكر بشأن المرأة في معظم شعره لا يعدو أن يكون تحذيراً لها وانطلاقاً من هذا المفهوم فقد شق طريقه بعنف حتى حقق مآربه وأطماعه ثم يعددخصالهيقول في ذلك :

لا تحسبيني مثل من هو قاعد   على عشة أو واثق لكساد
إذا انفلتت مني جواد كريمة   وثبت فلم أخطىء عنان جوادي

وهكذا نمضي مع الشنفري في رده على لائمته ، ثم يستعرض الخصال الحميدة التي يمتاز بها على أقرانه ، أما بقية أشعاره فهي تبدأ بموضوعات عامة.غير الغزل وخاصة موضوعات للصعلكة فيها نصيب وافر كالغزو والإغارة من ذلك ما يقوله في ذكر شجاعته وبأسه :

إذا هم لم يحذر من الليل غمة   تهاب ولم تصعب عليه المراكب
قرى الهم اذ ضاف الزماع فاصبحت   منازله تعتس فيها الثعالب

فهو هنا يتحدث في هذه المقطوعة القصيرة عن شجاعته وتحمله لكل ضروب الأخطار ثم يتحدث في أبيات أخرى عن صبره وتحمله للمشقات دون أن يتعرض للأطلال والرسوم والغزل بتاتاً إذ يقول[1] :

أنا السمع الأذل فلا أبالي   ولو صعبت شناخيب العقاب
ولا ظمأ يؤخرني وحر   ولا خمص يقصر من طلاب

وقد بدأ بائيته متحدثاً عن خروجه ولكنه هنا يضع بيته الأول في مجال الغزو والتذكير وليس من قبيل التغزل والنسيب حيث يقول[2]:

خرجنا فلم نعهد وقلت وصاتنا   ثمانية ما بعدها مستعتب
سرا حين فتيان كأن وجوههم   مصابيح أو لون من الماء مذهب

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٣٣

(٢) نفس المصدر ص ٣٢

ويقول في رثاء أبيه ولم يتعرض بتاتاً لذكر الأطلال أو الغزل :

أضعتم أبي إذ مال شق وساده على جنف قد ضاع من لم يوسد
فإن تطعنوا الشيخ الذي لم تفوقوا منيته وغبت إذ لم أشهد
فطعنة خلس منكم قد تركتها تمج على أقطارها سم أسود

فإن الشنفري هنا مندمج بكل أحاسيسه ووجدانه بالأسى والحسرة على مقتل أبيه ولم يلتفت الى أي غرض آخر غير الاستعداد للثأر بعد أن قتلوا أباه وضيعوا الشنفري وحرموه من حنان أبيه وعطفه وبره .

وعندما وقع الشنفري في أسر بني سلامان طلب إليهم أن يقذفوه إلى الضبع وقال أبياتاً خالية من ذكر الأطلال ومن النسيب يقول

لا تقبروني إن قبري محرم عليكم ولكن أبشري أم عامر
إذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عند الملتقى ثم سائري
هناك لا أرجو حياة تسرني سجين الليالي مبسلاً بالجرائر

وهكذا نمضي في قراءة أشعار الشنفري حيث يتأكد لنا ما ذهبنا إليه ابتداء من خلو قصائده من المقدمة الغزلية ومن التغني بالأطلال لأن ظروف هؤلاء الصعاليك ومن ضمنهم الشنفري لم تسعفهم في التروي ثم إنهم لم يكونوا يحملون الا في الغزو والسلب لإطعام الجائعين وإبعاد شبح الهلاك عنهم إذ أن المعركة بينهم وبين مجتمع الأغنياء البخلاء معركة حياة أو موت .

ثانياً : الانعتاق من الشخصية القبلية

لعبت تقاليد القبيلة في حياة الفرد دوراً فعالاً إذ أنه كان جزءاً من كل عليه أن يسمع ويطيع وينفذ توصيات شيخ القبيلة الذي يعتبر أعلى سلطة في النظام القبلي في المجتمعات الجاهلية فقد كان الفرد يعتز بقبيلته اعتزازاً عظيماً نظير حمايته والدفاع عنه وما إن يحدث اعتداء أو ظروف تعرض القبيلة للخطر الا ويهب هنا الفرد للدفاع يقول وداك المازني[1] :

---

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٦٤

اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم لأي ، مكان

وكان من أمثالهم قولهم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ويقول الشاعر :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

وعلى هذا فقد كان مقابل حقوق الفرد على الجماعة عليه التزامات وواجبات عامة ينبغي أن يتقيد بها ولا يخرج عن عرفها فاذا خرج فانه يصبح اما طريداً أو خليعاً من الخلعاء حيث تتبرأ القبيلة منه وتعلن على الأشهاد أنها غير مسؤ ولة عن تصرفاته .
وقد كان بعض شعراء الصعاليك مطرودين أو مخلوعين ولم يجدوا من سبيل الا الاحتماء بالجماعة الصعلوكية التي التقت اهدافها وتوحدت على الغزو والاغارة والسلب نياتها وعندئذٍ فإن الصعلوك لا ينطق معبراً عن آلام قبيلته وآمالها بل إنه يعبر عن نفسه تفكيراً وتصوراً وخيالاً لأن القبيلة قد طردته وحرمته من حماية الجماعة وأعلنت البراءة منه وفرضت العزلة عليه . لهذا نجد أن التعبير عن ضمير الجماعة غير موجود بل وجد مقابله الضمير الفردي اعتزازاً وافتخاراً وربما كان هناك اعتزاز بوحدة الصعاليك الجماعية كما نجد في قصيدة الشنفري في خطاب تأبط شراً واعتباره أماً في حرصه على هؤلاء المغامرين المخاطرين . وقد حلت الرابطة الصعلوكية الجماعية محل الرابطة القبلية في أحاديث الصعاليك يقول الشنفري في غزوة على بني سلامان[1] مصوراً مشاعره مع أصحابه في نص بياني رائع قوي المعاني متراكب الألفاظ :

خرجنا فلم نعهد وقلت وصاتنا ثمانية ما بعدها مستعتب
سراحين فتيان كأن وجوههم مصابيح أو لون من الماء مذهب
نمر برهو الماء صفحاً وقد طوت ثمائلنا والزاد ظن مغيب

وقد وصف الشنفري رفيقه تأبط شراً بوصف يقابل شيخ القبيلة إذ وصفه بالأم التي ترعى أبناءها والأم التي تحرص على خير عيالها يقول الشنفري[2] :

(١) الطرائف الأدبية ص ٣٢
(٢) المفضليات ص ٢٠٣

وأم عيال قد شهدت تقوتهم ... إذا أطعمتهم أوتحت وأقلت
تخاف علينا العيل إن هي اكثرت ... ونحن جياع أي آل تألت
مصعلكة لا يقصر الستر دونها ... ولا ترتجي للبيت إن لم تبيت

فإننا هنا أمام مشاعر جماعية عوضاً عن تقاليد القبيلة إذ أن الرابطة بين هؤلاء الصعاليك مذهبية فكرية بعد أن كانت قبلية عصبية . وقد كان خطاب الشنفري في معظم قصائده لرفاقه الصعاليك نابعاً من هذه المذهبية يقول في لاميته :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإني إلى قوم سواكم لأميل

ويقول زعيم الصعاليك عروة بن الورد داعياً الصعاليك الى روح المغامرة وتحمل الأخطار :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإن منايا القوم خير من الذل
فانكم لن تبلغوا كل همتي ... ولا أربتي حتى تروا منبت الأثل

فالشنفري يقصد ببني أمه هنا الصعاليك ، بعد أن كان الشاعر في العصر الجاهلي يتحدث عن الجماعة القبلية يقول عمرو بن كلثوم[1] :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ... ويشرب غيرنا كدراً وطينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملأه سفينا

وكان عروة زعيم الصعاليك يقصد ببني أمه الصعاليك الذين يغزو بهم ليحقق أغراضه وطموحه .

وبجانب هذه الأمثلة نجد شواهد أخرى تؤكد الجانب الفردي للصعلوك واندثار الاعتزاز بالقبيلة يقول الشنفري[2]

أنا السمع الأذل فلا أبالي ... ولو صعبت شناخيب العقاب
ولا ظمأ يؤخرني وحر ... ولا خمص يقصر من طلاب

---

(١) معلقته
(٢) الطرائف الأدبية ٣٣

فان الشنفري هنا يعتز ببأسه وشجاعته بعيداً عن الفخر والاعتزاز الجماعي بالقبيلة حيث يقول :

وكف فتى لم يعرف السلخ قبلها   تجور يداه بالاهاب وتخرج

ويقول :

لا تحسبيني مثل من هو قاعد   على عثه أو واثقٍ لكساد

وبجانب اتخاذ الشنفري من الصعاليك أصدقاء أوفياء الا أنه قد تميز عن بقية الشعراء الصعاليك من اتخاذه حيوان الصحراء صديقاً ودوداً مقرباً لم يثق لهم أكثر من الإنسان ويرتاح للعيش معهم بعيداً عن قسوة المجتمع القبلي الذي حرمهم من بره وحنانه ولم يحاول إصلاحهم بالطريق الأمثل السليم للعلاج يقول الشنفري في تفضيله حيوان الصحراء على الانسان :

ولي دونكم أهلون سيد عملس   وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الرهط لا مستودع السر ذائع   لديهم ولا الجاني بما جر يخذل
وكل أبي باسل غير أنني   اذا عرضت أولى الطرائد أبسل

فإن هذه الحيوانات من ذئب ونمر وضبع أصدقاء مخلصون له مقربون لقلبه وهم شجعان في المعارك فيما بينهم وبين أعدائهم وهم يستخدمون أسلحة فتاكة للقهر والفتك والعدو .

ولو تعمقنا في أكثر أشعار الشنفري الموجودة في ديوانه نجد أن الطابع الفردي سابغ على هذه الأشعار من هذه إكثاره من ضمير المتكلم عن نفسه يقول[1] :

ومستبسل ضافي القميص ضممته   بأزرق لا نكس ولا متعوج
وقاربت من كفي ثم نزعتها   بنزع اذا ما استكره النزع محلج

ويقول[2] :

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٣٤
(٢) نفس المصدر

وإنـي زعيم أن ألف عجاجتي على ذي كسـاء من سلامـان أو برد
هم عرفونـي ناشئـاً ذا مخيلة أمشي خلال الـدار كالأسـد الورد
كأنـي إذ لم أمس في دار خالد بتيماء لا أهـدي سبيلاً ولا أهدي

ويقول :

ونائمـة أوحيت في الصبـح سمعها مـزيع فؤادي واشمأز وأنكرا

وهكذا فإننا نجد في أشعار الشنفري اعتزازاً صعلوكياً فردياً وحديثا مستفيضاً عن شجاعته وبأسه . دون التعرض عن الحديث عن قبيلته والجانب الجماعـي في أحاديثه منصب على رفاقه الصعاليك الذين حلوا محل القبيلة في الغزو والاعتـداء والتربص بالناس وهذا ما لا نجده عند شعراء الجاهلية الا نادراً إذ أنهم كانوامندمجين في شخصية القبيلة الجماعية ولا نلمس الجانب الشخصي الفردي الا قليلاً وعندهم في الأمثال :

« في الجريرة تشترك العشيرة »[1] .

والعصبية القبلية هي الأصل الذي يلتف حوله الأفراد كلهم إذ أنها كانت محور التفكير الفردي والجماعي لكل القبائل ما عدا هؤلاء الشذاذ والخلعاء المطرودين يقول ابن خلدون :

(النعرة على ذوي القربى والأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة[2] وقد جاء الاسلام وميز بين الحق والباطل في مفهوم نصرة الظالم من المظلوم يقول رسول الله ﷺ « انصر أخاك ظالماً أو مظلوما قيل ننصره إن كان مظلوماً فكيف اذا كان ظالماً قال تحجزه عن ظلمه فذلك نصرك إياه »

وعلى هذا فقد كان مجيء الاسلام الخالد حداً فاصلاً في بيان الحق من الباطل والتمييز بين دوافع الخير ودوافع الشر في الحياة العامة .

---

(١) مجمع الأمثال الميداني ٢/١٧

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٨

ثالثا : بروز الظاهرة القصصية

لقد جاء شعر الصعاليك معبراً عن أهوائهم بأسلوب قوي رشيق ، ولفظ بديع ومعنى رائع كريم بعيداً عن الألفاظ الركيكة . والمعاني المبتذلة وكانت هذه الأشعار تحكي بوضوح قصة متصلة الحلقات بينهم وبين أعدائهم ثم إن هذا الشعر كان صادقاً ولم يكن مزيفاً بل كان فطرياً لم يتخذ وسيلة للمدح البعيد عن الحقيقة بل لا أبالغ إن قلت إن الشعر الصعلوكي يعد أصدق ما قيل في الشعر الجاهلي قاطبة وذلك حسب اعتقادي ، إذ أنه كان ينظم بعد معركة فاصلة بين الصعاليك الفتيان الذين كانوا ينظرون الى الحياة بكل استخفاف واحتقار وإزدراء معتزين ببطولاتهم هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد كان هؤلاء الشعراء الصعاليك دون استثناء أحد منهم مغامرين ذاقوا الويلات ولظاها في ميدان الغزو والسلب ولعلك تؤيد رأيي عندما تطالع بعضاً من قصائدهم في كتب الأدب أو في دواوينهم أما موضوع قصصهم فقد كان منصباً على الغزو والسلب ثم إن عناصر القصص الرائع قد توفر لديهم من إثارة تجذب الانتباه وتشده بأقوى الأواصر والروابط الفنية ومن تشويق معتمداً على أهداف الغزو والسلب في توضيح ما يراد وقد اتخذ سبيلاً مليئاً بالأحداث والشواهد المتوالية ثم إننا نجد تسلسلاً منطقياً مقبولاً في رواية هذه الأحداث ثم إن الشاعر الصعلوكي يوجز في نهاية قصيدته حكمته الخالدة والتي تشترك مع شعراء الجاهلية في بعض دروبها ومناحيها وذلك بعد أن حكى لنا بأسلوب بديع كل هذه الأحداث في ترتيب لطيف ونسق قريب للأسماع والأبصار . واذا ما تعمقنا في أشعار هؤلاء الصعاليك لوجدنا أن أسماء غزواتهم وسلبهم وهجومهم وكرهم وفرهم على القوافل والناس الآمنين أو على الأغنياء البخلاء أو على الرعاة في الصحراء لأخذ حيواناتهم وإبلهم وأغنامهم . ولعلنا نتساءل عن أصل هذا القصص فيكون الجواب بأن هؤلاء الصعاليك كانوا يقومون بغاراتهم في شكل متلاحق متواصل لا ينقطع فيأتي كلام وبيان هؤلاء الصعاليك معبراً عن هذه الغارات بأسلوب مشتمل على كل العناصر اللازمة من تشويق وإثارة وتسلسل منطقي للأحداث وخاتمة تضم هذه العناصر وهكذا فاننا لو أمعنا النظر في حكاية كل غزوة لوجدناها متضمنة لهذه العناصر ويتوفر فيها الصدق الفني والجمال البياني والدقة في التعبير والروعة في التصوير والسمو في الأهداف والغايات .

وأكاد أجزم أن هؤلاء الصعاليك هم الذين أوحوا لأمير الشعر العربي الجاهلي امرىء القيس أسلوبه في القصص وخاصته أنه قد عاش بين هؤلاء الشذاذ بعد أن طرده أبوه أنفةً من قول الشعر أو لأنه تغزل بامرأة أبيه . وقد أورد صاحب الأغاني رواية يقول فيها (وكان حجر طرد ابنه امرأ القيس وهو أصغر ولده وآلى الا يقيم معه ، أنفة من قول الشعر وكانت الملوك تانف من ذلك فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيء وكلب وبكر بن وائل ، فاذا صادف غديراً أقام فذبح لمن معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه)[1]

فما يمنع من أن يكون هؤلاء الصعاليك قد أثروا بأسلوب حياتهم في العيش ثم في طرائق التفكير عندهم على امرىء القيس ؟ حتى إن الراويه المدقق وهو إمام الرواة الثقات قد قال نقلاً عن ابن دريد عن أبي حاتم يقول فيه (ويقال إن كثيراً من شعر امرىء القيس لصعاليك كانوا معه)[2] وهذا يدعم ما زعمناه آنفاً من تأثر امرىء القيس بهؤلاء الصعاليك فتوة وشجاعة وأفكاراً وأسلوباً في الحياة وفي نظم الشعر وعلى هذا يكون هؤلاء الصعاليك أول من ابتكر فن القصة العربية المشتملة على العناصر اللازمة للأسلوب القصصي . واذا ما استعرضنا أشعار هؤلاء الصعاليك لوجدنا أن الفن القصصي يستحوذ على هذه الأشعار وكأننا أمام مشهد مرئي تشاهده العين بكل تتابع منظم بل تحرص عليه بكل شغف وروية .

ويحكي لنا الشاعر الفاتك تابط شراً قصة ممتعة عن تغلبه على غول في ليلة ظلماء في موضع يقال له رحى بطان فأخذت عليه الطريق فلم يزل بها حتى قتلها وبات عليها فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها الى إصحابه فقالوا لقد تأبطت شراً فقال في ذلك[3] :

الا من مبلغ فتيان فهم	بما لاقيت عند رحى بطان
وإني قد لقيت الغول تهوي	بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها كلانا نضو أين	أخو سفر فخلي لي مكاني

---

(١) أغاني الأغاني حـ ٢١ ص ٢٨٦
(٢) فحولة الشعراء مخطوطة ورقة رقم ٤
(٣) الأغاني حـ ٢١ ص ٦٠٥

فشـدت شدة نحـوي فأهوى لهـا كفـي بمصقـول يماني
فاضربهـا بلا دهش فخرت صريعـاً لليدين وللجران
فقالـت عد فقلـت لهـا رويداً مكانك إنني ثبـت الجنـان
فلم أنفـك متكئـاً لديها لأنظـر مصبحـاً مـاذا دهاني
اذا عينـان في رأس قبيح كرأس الهـر مشقـوق اللسان
وساقـا مخـدج وشـواة كلب وثـوب من عبـاء أو شنان

فلا شك أن هذه الأبيات احتوت على العناصر اللازمة للقصة الفنية ثم إنها قد حكت بأسلوب رائع جميل قصة هذا الصعلوك الفاتك مع الغول التي كانت عند العرب مرعوبة الجانب وقد بولغ في النظر إليها من حيث تخويفها للمهارة وقد تغلب عليها تأبط شراً .

وقد اقتدى الشنفري بأستاذه تأبط شراً حيث نشأ تحت رعايته وتبناه وغرس فيه مبادىء الصعلكة فسار الشنفري على أسلوب حياته ورافقه في غزواته وهو لا يختلف عن أستاذه في حكاية القصص الصعلوكية في الهجوم والسلب والقتل والفتك ومشاركته للرفاق في الغزو يقول الشنفري في حكاية غارة له على العوص من بجيلة قصة دامية محكمة الخيوط واضحة العناصر مكتملة الاجزاء رفيعة الأهداف شامخة الطموح :

خرجنا فلـم نعهـد وقلـت وصاتنا ثمانية ما بعدهـا مستعتب
سراحـين فتيان كأن وجوههم مصـابيح أو لون من الماء مذهب
نمـر برهـو الماء صفحـاً وقـد طوت ثمائلنـا والـزاد ظن مغيب
ثلاثـاً على الأقـدام حتـى سمابنا على العوص شعشاع من القـوم محرب
فثـاروا إلينـا في السـواد فهجهجوا وصـوت فينـا بالصبـاح المثوب
فشـن عليهـم هزة السيف ثابت وصمـم فيهـم بالحسـام المسيب
وظلـت بفتيان معـي أتقيهم بهـن قليلاً ساعـة ثم خيبوا
وقـد خر منهـم راجـلان وفارس كمـي صدعنـاه وخـوم مسلب
فلما رآنـا قومنـا قيل أفلحوا فقلنـا اسألـوا عن قائـل لا يكذب

ومن هذه الأبيات يتأكد لنا أن الأسلوب القصصي المشوق والمثير والمحتوى

على خاتمة موجزة تنهي الغرض من هذه الغزوة على العوص يتأكد لنا أن الأبيات الشعرية بكل دقائقها وتفاصيلها وأغراضها عبارة عن حكاية دموية بداية ونهاية وتحللها بيان بالسبل لانجاح هذه الغزوة . ويقص علينا الشنفري قصة أخرى عن قيامه بغزوة مع رفاقه وهي قصته الواردة في تائيته بعد تجريدها من المقدمة الغزلية العذبة[1] :

فبتنا كأن البيت حجر فوقنا — بريحانة ريحت عشاء وطلت
بريحانة من بطن حلية نورت — لها أرج ما حولها غير مسنت
وباضعة حمر القسى بعثتها — ومن يغز يغنم مرة ويشمت
خرجنا من الوادي الذي بين مشعل — وبين الجباهيهات أنشأت سربتي
أمشي على الأرض التي لن تضرني — لأنكى قوماً أو أصادق حمتي
أمشي على أين الغزاة وبعدها — يقربني منها رواحي وغدوتي
وأم عيال قد شهدت تقوتهم — اذا أطعمتهم أو تحت وأقلت
تخاف علينا العيل إن هي اكثرت — ونحن جياع أي آل تأيت
مصعلكة لا يقصر الستر دونها — ولا ترتجى للبيت إن لم تبيت
لها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً — اذا آنست أولى العدى اقشعرت
وتأتي العدى بارزاً نصف ساقها — تجول كعير العانة المتلفت
اذا فزعوا طارت بأبيض صارم — ورامت بما في جفرها ثم سلت
حسام كلون الملح صاف حديده — جراز كأقطاع الغدير المنعت
تراها كأذناب الحسيل صوادراً — وقد نهلت من الدماء وعلت
قتلنا قتيلاً مهدياً بملبد — جمار مني وسط الحجيج المصوت
جزينا سلامان بن مفرج قرضها — بما قدمت أيديهم وازلت
وهنىء بي قوم وما إن هنأتهم — وأصبحت في قوم وليسو بمنبتي
شفينا بعبد الله بعض غليلنا — وعوف لدى المعدى او ان استهلت
اذا ما اتتني ميتتي لم أبالها — ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي
ألا لا تعدني إن تشكيت خلتي — شفاني بأعلى ذي البريقين عدوتي

---

(١) المفضليات ط بيروت ص ١٩٥

وإنـي لحلـو إن أريدت حلاوتي ومـر اذا نفس العـزوف استمرت
أبـي لما أبـى سريع مباءتي إلى كل نفس تنتحـي في مسرتي

فنحن أمام قصة طريفة في أبيات الشنفري الذي اتحفنا بكثرة أحداث قصة في الخروج والاغارة والتربص والقتل والانتقام من قاتل أبيه ووصف السلاح والهجوم على بني سلامان ثم وصف عدم اهتمامه ومبالاته بالمنية إن هي هجمت عليه وأودت بحياته بل هو شجاع أبي لا يضع للموت في حسابه اثناء الكر والفر حساباً بل إنه يمضي حسب الخطة المرسومة والأهداف المتفق عليها ولا أكاد أجد مثل هذه القصص الصعلوكية في الشعر الجاهلي لأنها نبعت من فؤاد مارسها ومن شاعر تلظى بآلام الجوع والفقر فجاءت على سجيتها عذبة حلوة تعشقها النفس ناهيك عن حكمتها التي ختم بها الشنفري قصيدته بوصف نفسيته ومدى وفائه لمن يعامله حباً وقلى .

رابعاً : الواقعية في شعره

من الخصائص البارزة في شعر الشنفري وجود الواقعية العملية في شعره واقعية كانت مطابقة لنفسيته وتفكيره فجاءت الصورة متناسقة مع الأصل وتلمس ذلك بوضوح في قصته الدامية الطويلة مع أعدائه حيث أنه لم يتوان عن الاغارة والسلب والفتك ، ومن مظاهر هذه الواقعية الممارسة العملية في الفن الوصفي الشعري ، وخاصة عندما جاءت هذه الممارسة حقيقة نابعة من تفكيره وتوافقت في الأحداث مع الخط العام في تصويره البديع من ذلك قوله في وصف مدى الفرح لدى الضبع عندما بشره بأن جثته سوف تلقى إليه وطلبه من قاتليه أن يقذفوا هذه الجثة للضبع ليأكلها يقول :

لا تقبروني إن قبري محرم عليكم ولكن أبشري أم عامر
اذا احتملوا رأسي وفي الرأس اكثري وغـودر عند الملتقـى ثم سائري
هنـاك لا أرجـو حياة تسرني سجين الليالي مبسـلاً بالجرائر

فإننا هنا نجد التطابق العملي مع نفسه التي كانت تتمنى الموت ولا ترى فيه الا خلاصاً من آلام الجوع والفقر عندما أنشد من قبل متمثلاً بحكمته الرائعة :

اذا ما أتتنـي ميتتـي لم أبالها ولـم تذر خالاتـي الدمـوع وعمتي

لذا فإن هذه الممارسة العملية للواقعية كانت بالفعل ناتجة عن تجربة شعورية ونابعة من احساس مسيطر على النفس فعبر اللسان بصدق عما في الجنان فصدقت الأقوال وارتاحت النفوس ومن ظواهر هذه الخاصية الفنية في الواقعية وصف الحياة بخيرها وشرها وكل العوالم المحيطة بها من الواقع المادي الملموس تحت الأبصار من صحراء وحيوان وغزوات وجوع وغنى ومن عوالم أخرى فيما وراء هذا العالم المادي المجسم الى وصف الحالات التي لا تخطر على بال كالموت وكالاباء الذي نجده عند قرين مثله كما وجدناه عند الشنفري ثم الوفاء وترك الخوف يقول لأمه عندما حزنت لوفاة أخيه الصغير وأبدت الجزع والحزن :

ليس لوالـدة همهـا ولا قبلهـا لابنهـا دع دع
تطـوف وتحـذر أخوالـه وغـيرك أملـك بالمصـرع

فاننا هنا نلمس حادثة مستنبطة من الواقع المادي وهي وصفه لموت أخيه وحزن أمه وبكائها عليه ومن قوله كذلك اعتماداً على ما في هذا الكون من المظاهر قوله :

ولي دونـكم أهلـون سيد عملس وأرقـط زهلـول وعرفـاء جيأل

فبحكم اتصاله بالصحراء فإنه أجاد في نقل هذه الصورة البديعة لحيوان الصحراء الذي اتخذه صديقاً وفياً وغير هذه الأمثلة كثير .

ولعل أصدق ما قيل في تصوير واقعيته مجابهته لوالد الفتاة التي لطمته عندما أراد أن يقبلها أو عندما طلب منها أن تغسل له رأسه حسب ما ورد من الروايات الأدبية . فذهبت فوراً لأبيها وطلب منه أن يعرفه بنسبه وذلك عندما يقول[1] :

ألا ليت شعـري والتلهف ضلة بمـا لطمـت كف الفتـاة هجينها
ولو علمـت قعسـوس أنسـاب والدي ووالدهـا ظلـت تقـاصر دونها
أنـا ابـن خيار الحجـر بيتـاً ومنصباً وأمـي ابنـة الأحـرار لو تعلمينها

فإنه هنا يصف أصله وافتخاره به في مقابل امتهان الفتاة له وهـي لا شك صورة صادرة من حادثة وقعت له ولم تكن بعيدة عن خياله أو لم تكن بعيدة عن

---

(١) الطرائف الأدبية

تفكيره بل جاء شعره واصفاً لها بعد أن وقعت ومن مظاهر هذه الواقعية التي نجدها عند الشنفري بل نجدها عند الصعاليك قاطبة الصراحة في التعبير والوضوح في بيان ما يراد دون خوف أو وجل أو حياء من ذكر السلبيات أمثال ذكره للفرار والجوع والخوف أو تعرضه للاهانة دون أدنى محاولة لإخفائها بل إن الشنفري يصارح رفاقه الصعاليك السامعين لكل هذه الأحداث من ذلك قوله في ذكر قطع يده قبل موته :

لا تبعدي إما هلكت شامة فرب واد نضرت حمامه
ورب قرن فصلت عظامه ورب خرق قطعت قتامه
ورب حي مزقت سوامه

فهو يذكر أنه قد فعل بهم قتلاً وعذاباً وتنكيلاً مثلما فعلوا به الآن بل إنه كان أشد ضراوة وقسوة منهم في السابق من الزمن .

ومن صراحته في ذكر الجوع قوله :

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كي لا أرى له علي من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب يعاش به إلا لدي ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي على من الضيم الا ريثما يتحول
وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت خيوطة ماري تغار وتفتل
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أذل تهاداه التنائف أطحل

هنا صراحة في غاية الوضوح حيث أنه يستعذب الجوع ويفضله على أن يأخذه من متفضل عليه ويؤثر أن يطوي الحوايا كما تطوى الخيوط وما ذاك الا لأنه يحمل نفساً أبيه حرة .

ومن مظاهر واقعيته البراعة في نقل الصور الماثلة في الأذهان الى عالم محسوس تشاهده العيون وتدركه الأبصار من ذلك قوله في رثاء أبيه وبراعته في نقل هذه الصورة الحية وكيف أنه بفقده أباه العزيز قد فقد البر والحنان والإحسان :

أضعتم أبي اذ مال شق وساده على جنف قد ضاع من لم يوسد
فان تطعنوا الشيخ الذي لم تفوقوا منيته وغبت إذ لم أشهد
فطعنة خلس منكم قد تركتها تمج على أقطارها سم أسود

فقد أبدع الشنفري في براعة فائقة في نقل هذه الصورة الحزينة الباكية لمقتل أبيه وما هذا الا لأنه نابع من صدق احساسه بالمرارة والحزن والأسى التي تكبدها ، ومن براعته في تمثيل الواقع قوله في الأبراج التي كانت ملجأ له أثناء اختبائه فيها :

زمرقبة عنقاء يقصر دونها ... أخو الضروة الرجل الحفى المخفف[1]
نعيت الى أدنى ذراها وقدرنا ... من الليل ملتف الحديقة أسرف
فبت على حد الذارعين مجذيا ... كما يتطوى الأرقم المتعطف
وليس جهازي غير نعلين اسحقت ... صدورهما مخصوزة لا تخصف

فقد وصل الشنفري في هذه القصيدة الفائية الى الذروة القصوى في براعة النقل وصحة التركيب وسلامة الأسلوب بحيث نعتبره صورة فوتوغرافية تنقل صورة حية ماثلة للعيان على أن أسباب هذه البراعة عندي ترجع الى عدم وجود تناقض في التفكير أو زيف في الخيال مخالفة للواقع بل ترجع الى اتفاق التفكير مع التصوير مع صفاء النفس ووفاء لما هو مكنون في عالم الباطن فصدق الجنان ما خرج من اللسان .

ومن المظاهر المشاهدة في واقعية الشنفري دقته في الايضاح والتعبير وسلامة المخرج من ذلك قوله في غزوة له مع رفاقه الصعاليك على العوص من بجيلة بحيث جاءت هذه الصورة دقيقة وافية ومؤدية للغرض العام من هذه الميمونة عنده .

يقول الشنفري في غزوة له على العوص من بجيلة حيث قتلوا منهم واستاقوا إبلهم فاعترضت لهم خثعم في الطريق وأشار عامر بصدق الضراب فحملوا حملة رجل واحد وهزموهم [2]

دعيني وقولي بعدما شئت إنني ... سيغدى بنعشي مرة فأغيب
خرجنا فلم نعهد وقلت وصاتنا ... ثمانية ما بعدها مستعتب
سراحين فتيان كأن وجوههم ... مصابيح أو لون من الماء مذهب
نمر برهو الماء صفحاً وقد طوت ... ثمائلنا والزاد ظن مغيب

(١) الطرائف الأدبية ص ٣٧
(٢) الطرائف الأدبية ص ٣٢ ديوان الشنفري

ثلاثـاً على الأقـدام حتـى سما بنا ... على العوص شعشاع من القـوم محرب
فثـاروا إلينـا في السـواد فهجهجوا ... وصـوت فينـا بالصبـاح المثوب
فشـن عليهـم هزة السيف ثابت ... وصمـم فيهـم بالحسـام المسيب
وظلـت بفتيان معـي أتقيهم ... بسهـم قليلاً ساعـة ثم خيبوا
وقـد خر منهـم راجـلان وفارس ... كمـي صرعنـاه وخـوم مسيب
يشـن إليه كل ربع وقلعة ... ثمانية والقـوم رجـل ومقضب
فلما رآنـا قومنـا قيل أفلحوا ... فقلنـا اسألـوا عن قائـل لا يكذب

فإن هذه الأبيات تمثل صحة ما قلناه من أن الشنفري قد أجاد في النظم تعبيراً وأبدع في الرص دقة وأبدع في ترتيب الأفكار جمالاً وأتقن في التفكير العام من تحديد العناصر إجادة وبراعة في الخروج والغزو والأسلاب والقتلى وقد أحسـن احسانـاً بديعاً في تركيز هذه المعاني في خاتمة مشتملة على خلاصة فكره وعصارة خياله مع بيان مشرق لرفاقه أثناء المسير . ولم ينس الشنفري أن يوضح أن الغلبـة في النهـاية له ولرفاقه .

ومن مظاهر واقعية الشنفري عنايته الفائقة بالتفاصيل من حيث ذكر أطـوار حياته ثم ذكر سيرته العامة وصبره على آلام الحياة ومشقاتها ثم ذكر الرفاق وأثرهم في تشكيل حياته بعد أن تتلمذ على تأبط شراً الذي يعد معلماً وفياً له إذ أن الشنفري شب على تعاليمه بالتمسك بالمبادىء الصعلوكية كراً وفراً وغزواً واجراماً واستهتاراً بالحياة ومغرياتها .

فهو يفضل الموت الزؤ ام على أن يأخذ هبة أو صدقة من متفضل محسن إليه ثم إنه كان يخرج لكسب قوته بحد السيف متعسفاً في تفسير المفاهيم اللازمة للسلـب والنهب ثم إن الشنفري كان واضحاً في نيته وعزمته للمستقبل فهو قد حدد خطـه العام وهدفه الذي لا يحيد عنه وهو القتل والسلب والنهب مع بروز بعض الجوانب المشرقة المصبوغة بالظلم والاجرام في أحيان كثيرة وهي إباؤه وترفعه عن الدنايا في كثير من جوانب حياته سواء أكان ذلك بالنسبة للنساء والرغبة فيهن أو وفاؤه النادر للرفاق وخاصة وفاؤه لوالد زوجته قعسوس الذي قتله قومـه لأنـه زوج ابنتـه من الشنفري وكان ذلك جلياً في ذكره لقتل مائة من بني سلامـان إذ هنـاك روايتـان أحداهما تزعم أنه قتل مئة من بني سلامان لأنهم استعبدوه أو لأنه تزوج ابنة سيده

فقتل القوم هذا السيد لخروجه على نظام القبيلة وأعرافها وتقاليدها .

ويمكن أن نلاحظ تلك التفاصيل في أكثر من زاوية من ذلك قوله في الفتاة التي لطمته[١] .

الا هل أتى فتيان قومي جماعة	بما لطمت كف الفتاة هجينها
ولو علمت تلك الفتاة مناسبي	ونسبتها ظلت تقاصر دونها
أليس أبي خير الأواس وغيرها	وأمي ابنة الخيرين لو تعليمنها
اذا ما أروم الود بيني وبينها	يؤم بياض الوجه مني يمينها

فالشنفري هنا أمام موقف لا بد فيه أن يعلن باصرار وتحد عن أصله أمام هذه الفتاة المتعجرفة الظالمة والتي جهلت قدره ومكانته فلطمته بتلك الصفعة القوية ثم كان لا بد من إيضاح موقفه بجرأة وشجاعة أمام رفاقه عن الخطأ الذي ارتكبته هذه الفتاة ، ولو أنها علمت أرومته وأصله ما أقدمت على فعلتها الشنيعة تلك ثم يعطف مفصلاً الكلام على مكانة أبيه وفضله وشرفه من أنه خير الأواس وغيرهم وهذا ما يدعونا الى احتمال أن يكون أبوه شريفاً وكانت أم الشنفري سبية عنده كل هذا وارد في نطاق الاحتمال إذ لم يكن من المنكر لدى الأشراف والسادة العرب الزواج بالاماء وهذا كثير مثل عنترة بن شداد الذي كان أبوه سيداً من سادات عبس وأمه سبية من سبايا الحبشة وعلى هذا فاننا نجد أن الواقعية لكل هذه التفاصيل كانت نابعة من بيئة الشاعر وهو خير من يمثلها .

خامساً : التزام المذهبية في شعره

إن الدارس الذي يتعمق في شعر الشنفري وفي سيرته عموماً يخرج بعدة ملاحظات هي للحقيقة أقرب منها الى الاحتمال ؛ ذلك أن الشنفري التزم خطاً مستقيماً لا يحيد عنه ، بعد أن غرست فيه المبادىء الصعلوكية ، وأشرف استاذه ومعلمه تأبط شراً على تربيته وغرس هذه الأفكار عملياً فيه ، وذلك عندما كان يضع وإياه الخطط للغزو ثم يشترك وإياه مع الرفاق الصعاليك في هذه الخطط . وقد تميز الشنفري من دون الشعراء الصعاليك وانفرد بعدة مظاهر مذهبية سبقت شعره

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٤٠

وسيرته وأفكاره وذلك اقتداء بزعيم الصعاليك وسيدهم عروة بن الورد والذي كان يضع الأفكار والخطوط العريضة للصعاليك ثم يأتي دور المنفذين أمثال تأبط شراً والشنفري يجعل من هذه النظريات حقيقة ملموسة يقول عروة بن الورد[1] :

أقلي عليَّ اللوم يا ابنة منذر ... ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري
ذريني ونفسي أم حسان إنني ... بها قبل أن أملك البيع مشتري
ذريني أطوف في البلاد لعلني ... أخليك أو اغنيك عن سوء محضر
فإن فارسهم للمنية لم أكن ... جزوعاً وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد ... لكم خلف أدبار البيوت ومنظر

فلا شك أن أشعار عروة بن الورد هذه وإن كانت صادرة عن مركز القيادة عند الصعاليك تعتبر نظريات سار على تنفيذها الصعاليك الشجعان أمثال الشنفري ومن الملاحظ أن هؤلاء الصعاليك العاملين كالشنفري وتأبط شراً ، فقد جعلوا النظريات المرسومة من قيادتهم منفذاً وممارساً بحيث ضرب الشنفري وتأبط شراً وعمرو بن براقة وأبو خراش وأبو الصمحان الدرس العملي للغزو والنهب والفتك من ذلك ما يقوله تأبط شراً في وصف شجاعته وبأسه[2] :

يا عبد مالك من شوق وإبراق ... ومر طيف على الأهوال طراق
يسرى على الأين والحيات محتفياً ... نفسي فداؤك من سار على ساق
إني اذا خلت ضنت بنائلها ... وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق
نجوت منها من بجيلة اذ ... ألقيت ليلة جنت الرهط أروقي
ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهم ... بالعيكتين لدى معدى ابن براق
كأنما حثحثوا حصا قوادمه ... أو أم خشف بذي شث وطباق
لا شيء أسرع مني ليس ذا عذر ... وذا جناح نحيب الريد خفاق
حتى نجوت ولما ينزعوا سلبي ... بسدا له من قبيض الشد غيداف
ولا أقول اذا ما خلة صرمت ... يا ويح نفسي من شوق واشفاق
سباق غايات مجد في عشيرته ... مرجع الصوت هدأ بين أرفاق

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٢١٤ وديوان عروة ص ١٣

(٢) المفضليات ص ١٩٥

حمـال ألـوية شهـاد أندية	قـوال محكمـة جواب آفاق
فذاك همـي وغـزوي اسـتغيث به	اذا استغثـت بضـافي الـرأس نفاق
وقلـة كسنـان الرمـح بارزة	ضحيانـة في شهـور الصيف محراق
إنـي زعيم لئـن لـم تتـركوا عذلي	أن يسـأل الحـي عنـي أهـل آفاق
سدد خلالك من مال تجمعه	حتى تلاقي الـذي كل امرىء لاقي

فنحن نلمس في هذه القصيدة الطويلة الشجاعة الفائقة الممزوجة بالاستهانة بالموت والحرص على التنفيذ وترك رداء الكسل بعيداً حتى وإن كانت التحديات أكبر من همته وهو يضع روحه على راحته ولا يبالي وعندي أن تأبط شراً والشنفري يعد ان من أشجع شعراء الصعاليك وابرزهم في ميدان الغزو حتى إن الشنفري كان يقود رفاقه في غياب تأبط شراً ونجد في هذه الأبيات الفتـوة والأبـوة والحماسـة الفـريدة والتغني بالثبات وقت الشدة والشعور الفياض في مجال الحماسة والفروسية التي تجدها في سائر شعر الصعاليك وربما كان القاسم المشترك بين هؤلاء الصعاليك هو عنصر الشجاعة والمغامرة والأخطار يقول :[1]

متـى تجمـع القلـب الـذكي وصارماً	وأنفـاً حمياً تجتنبـك المظالم
متـى تطلـب المال الممنـع بالقنا	تعش ماجـداً أو تخترمـك المخارم
وكيف ينـام الليل من جل ماله	حسـام كلـون الملح أبيض صارم
ألـم تعلمـي أن الصعـاليك نومهم	قليل اذا نام الخلي المسالم

اللهجة ذاتها والشجاعة ذاتها والهدف واحد والطموح واحد في هذه الأبيات فالنبع العام واحد عند الصعاليك ، ثم يتفرق ويتوزع الى جداول متعددة يختلف حدة وضعفاً حسب نفسيات هؤلاء الصعاليك والأمر المشترك عندهم جميعاً هو حبهم للموت والمغامرة ومواجهة التحديات مهما كانت النتائج المترتبة على لقاء الكثرة من أعدائهم مع قلتهم إذ أنهم يضحـون حياتهم على أسنة الرماح إما حياة فيها كرم وإباء وإما موت زؤام يتجرعونه بكل استعذاب وقبول وهم شجعان ما في ذلك شك وقد آثروا حياة الكرامة والموت على حياة الدعة والسلام والاستقرار .

---

(١) ديوان عروة ص ١٥ وشرح الحماسة ١/٥٠١

ويصب زعيم الصعاليك جام غضبه على أولئك النفر من الصعاليك الجبناء الخائري القوى ويدعوهم الى ترك حياة الذل والمهانة واكتساب الحمد والقوت بحد السيف[1] :

لحا الله صعلوكاً اذا جنّ ليله | مصافي المشاش آلفاً كل مجزر
يعد الغنى من نفسه كل ليلة | أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعساً | يحث الحصى عن جنبه المتعفر
يعين نساء الحي ما يستعنه | ويمسي طليحاً كالبعير المحسر
ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه | كضوء شهاب القابس المتنور
فذلك إن يلق المنية يلقها | حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

فهذه الأبيات التي أبدعتها قريحة زعيم الصعاليك فيها الخطوط العريضة العامة للشجاعة إذ أنه يدعو الصعاليك عموماً الى الفداء وبذل النفس رخيصة في سبيل العيش الكريم ويلوم المتخاذل أشد اللوم وأقساه ويدعوه للمغامرة والفروسية كالصعاليك الشجعان أمثال الشنفري وتأبط شراً وعمرو بن براق وهو يؤثر أن يموت الصعلوك في ميدان الفتك والضراب كريماً أبياً فارساً من أن يموت غنياً مترفاً وهو كسول متواكل .

ومن الأمثلة الحية على شجاعة الصعلوك الثائر والفاتك المغامر والمخاطر الذي يستغل كل الظروف لتحقيق المذهبية الصعلوكية الشنفري الذي لا يتقدم صعلوك من الصعاليك عليه إقداماً وشجاعة وحماسةً وفتكاً وتنكيلاً بالأعداء ويكفي أن قتل وحده تسعاً وتسعين نفساً من أعدائه ثأراً لمقتل أبيه أو ثأراً لمقتل والد زوجته الذي خاطر بنفسه وزوجه من ابنته قعسوس على خوف من قومه يقول الشنفري[1] :

أنا السمع الأزل فلا أبالي | ولو صعبت شناخيب العقاب
ولا ظمأ يؤخرني وحر | ولا خمص يقصر من طلاب

فإنه هنا يضع نفسه في مهب الرياح مستهتراً بكل شيء عازماً على تحقيق ما في ذاته طامعاً في انجاز أهدافه . ثم إن الجانب الفني لشعر الصعاليك كان متوافقاً مع

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٣٣

الخط العام لشعر الصعاليك هدفاً وشكلاً ومن حيث اعتماده القوة والعنف والغزو في الكر أحياناً كثيرة ونلاحظ أن الصعاليك كانوا أحياناً يدعـون الى شيء من العـدل الاجتماعي حتى ولو لم يتحقق ذلك الا قسراً وقهراً والانتقام من البخلاء يقول أحد الصعاليك[1] :

وإني لأستحي من الله أن أرى ... أجـرر حبـلاً ليس فيه بعير
وأن أسـأل الجبل اللئيم بعيره ... وبعـران ربـي في البـلاد كثير
عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى ... وصوت انسـان فكـدت أطـير
يرى الله انـي للأنيس لشانيء ... ويبغضهـم لي مقلـة وضمير

فإن النظرة العامة لهذه الأبيات يظهر فيها بوضوح العنف والقسوة وهو كاره لبني الانسان الـذي ضن بنائلـه على هؤلاء المحرومـين ويؤثـر حيوان الصحـراء المتوحش على الإنسان الظالـم عديم الرحمة، ويوضح الشنفري في اعتزاز موقفه وهجومه على بني سلامان ثأراً وسلباً وقتلاً متحـدياً كل قواهـم وجموعهـم وخطتـه المرسومة التي أعدها ينفذها بكل دقة ويقول في ذلك صراحة[2] :

كأن قد فلا يغـررك منـي تمكثي ... سلكت طريقـاً بـين يربـغ فالسرد
وإنـي زعيم أن ألف عجاجتي ... على ذي كسـاء من سلامـان أو برد
وأمشي لدى العصداء أبغـي سراتهم ... وأسـلك خلاً بـين أرفـاغ والسرد
هم عرفونـي ناشئـاً ذا مخيلة ... أمشي خلال الـدار كالأسـد الورد
كأنـي إذا لم أمس في دار خالد ... بتيماء لا أهـدي سبيلاً ولا أهدي

فهـو في هذه الأبيات الوصـفية زعيم في قيادة الصعـاليك وملتـزم بالأفـكار الصعلوكية والتي يريد منها أن تكون واضحة بجلاء أمام الصعاليك وأمام الأعداء من جهة أخرى والشنفري هنا يمتاز عن أقرانه بأنه يختار في القتل والانتقام من السادة والأشراف ومن أمثلة ذلك قوله في الرد على زوجته وتأثره بالفكر الصعلوكي[3] :

---

(١) الحياة العربية د . الحوفي ص ٣٠٤
(٢) الطرائف الأدبية ص ٣٤
(٣) الطرائف الأدبية ص ٤١

اذا أصبحت بين جبال قو | وبيضان القرى لم تحذريني
فاما أن تودينا فنرعى | أمانتكم وإما أن تخوني
سأخلي للظعينة ما أرادت | ولست بحارس لك كل حين
اذا ما جئت ما أنهاك عنه | فلم أنكر عليك فطلقيني
فأنت البعل يومئذٍ فقومي | بسوطك لا أبالك فاضربيني

فالصراحة في تفكير الشنفري هنا ظاهرة بينة ، إذ يطالب زوجته باتخاذ موقف معين ولها الحرية الكاملة في الاختيار إما بقاء معه على حال الشظف والقسوة في العيش وإما فراق تجد بعده العيش المنيء الرغيد . فهو صاحب أوتار وعاشق مغامرات لا يبالي بالحياة والحرص على ما فيها لأنه يريد أن يكون عزيزاً بقوة وبكرامة بعيداً عن ذوي الترف والدعة .

ومن المظاهر الواضحة في المذهبية الشعرية عند الشنفري اقتداؤه بسيد الصعاليك وزعيمهم عروة بن الورد الذي لا يفرق بين نفسه في الغذاء وبين الآخرين فهو يشرك غيره معه في زاده ويعطف على المساكين بعد أن سلبوا ونالوا من الغنائم من أولئك الأغنياء الأشحاء يقول عروة بن الورد :

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى | بجسمي مس الجوع والجوع جاهد
لأني امرؤ عافي انائي شركة | وأنت امرؤ عافي انائك واحد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة | وأحسو قراح الماء والماء بارد

فقد كان عروة سيداً كريماً فاق حاتم الطائي عندما ذهبت نفسه في العيش هذا المذهب حتى إن كثيراً من الخلفاء أعجبوا بنبله وكرمه وشجاعته يقول معاوية (لو كان عروة حياً لأحببت أن أتزوج من أولاده) ويقول عبد الملك بن مروان من ظن أن حاتم أكرم الناس فقد ظلم عروة وهكذا نجد أن عروة بن الورد كان قدوة للصعاليك من بعده يقول الشنفري في التزامه بالمذهبية الصعلوكية وهي حرص (أم العيال) عنده بالانفاق بالقدر اللازم دون بذخ أو ترف أو اسراف[1] :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم | اذا أطعمتهم أو تحت وأقلت

---

(١) المفضليات ص ٢٠٣

تخــاف علينــا العيل إن هي أكثرت ونحـــن جياع أي آل تألت
مصعلـكة لا يقصر الستــر دونها ولا ترتجـي للبيت إن لم تبيت
قتلنــا قتيلاً مهـدياً بملبدٍ جمــار منـي وسـط الحجيج المصوت

فقد خرج الشنفري مع جماعة كان تأبط شراً هو الزعيم فيهـم ومعـه الـزاد والقوت الخاص بهم فاذا وزع عليهم هذا القوت لم يعطهم الا القليل القليل خوفاً من نفاد الزاد وتعرضهم للخطر لأنهم خارجون في غزوة قد يطول مداها وليس معهم الا القليل من الطعام ، وهذا يدلنا على أن هؤلاء الصعاليك كانـوا يعتمدون في غذائهم على ما يغنمون ويوزعون هذا الموجود عندهم بالتساوي فلا أحد يستأثر بشيء دون الأخرين فهم سواء في العيش . ومن مظاهر التزامه بالمذهبية الشعرية قوله في الارتحال عن أهل الظلم والبغي وتفضيل حيوان الصحراء على بني الإنسان يقول[1] :

أقيمــوا بنــي أمـي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل
لعمــرك ما بالأرض ضيق على امرىء سرى راغبــاً أو راهبــاً وهــو يعقل
وفي الأرض منأى للـكريم عن الأذى وفيهــا لمن خاف القلى متعزل

فهو هنا يؤثر الاقامة عند حيوان الصحراء بعيداً عن أولئك الحائرين من بني الإنسان لأن في مناحي الأرض متسعاً لأمثاله الذين يطلبون العزة وينأون عن مواطن السوء والأذى والذل .

ومن مظاهر التزامه بالمذهبية الصعلوكية عدم تهافته على الزاد بشراهة الآخرين عندما يمد للآكلين بل إنه يأكل باحتشام وبأدب جم يقول :

وإن مدت الأيدي الى الـزاد لم أكن بأعجلهــم إذ أجشــع القــوم أعجل
ومــا ذاك الا بسطــة عن تفضل عليهــم وكان الأفضــل المتفضل

فالشنفري نشأ على الأدب والحشمة في الحياة ويصف الجانب العملي من أخلاقه أثناء تناول الطعام وزهده فيه ورغبته عنه .

---

(١) لامية العرب في الأمالي ص ٢٠٣

ومن مظاهر التزامه بالمذهب الصعلوكي اعتزازه بالشجاعة واختلافه عن ذوي الدعة والمال ومغامرته وعفته ومحافظته على زوجته وبعده عن الانحلال الخلقي والتخنث والميل عن النساء الى المعالي، بل إنه صلب العود ثابت الجاش . بل إن المغريات لا تصرفه عن هدفه الأصيل بل إنه ملتزم بالخط العام يقول :

ولا جبأ أكهى مرب بعرسه	يطالعها في شأنه كيف يفعل
ولا خرق هيق كأن فؤاده	يظل به المكاء يعلو ويسفل
ولا خالف دارية متغزل	يروح ويغدو داهناً يتكحل
ولست بعل شره دون خيره	ألف اذا ما رعته اهتاج أعزل

فهو هنا يبعد عن نفسه صفة الجبن والاقامة الدائمة مع النساء في المنزل إعجاباً بهن ثم إنه غير وجل من كل هذه التحديات والمخاطر التى تتربص به وليس بذاك الرجل الذي يعشق النساء والطيب والتقرب منهن بحيث يفعل ما تفعله الغواني في اتخاذ الزينة ثم إنه ليس كسولاً يحب الدعة والاستقرار بل يتدفق شباباً وقوة وحيوية .

على أننا نجد عند الشنفري أروع ما قيل في العفاف والاصطبار على لذعات الجوع ويؤثر الفناء والهلاك على أن يأخذ ما يسد رمقه من أي من ذوي الفضل والإحسان بل إنه يكسب قوته بحد السيف هارباً من هذه الحياة الى حياة ملؤها العزة والشرف :

أديم مطال الجوع حتى أميته	وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كي لا يرى له	عليّ من الطول امرؤ متطول
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي	على الضيم الا ريثما اتحول
غدا طاويا يعارض الريح هافيا	يخوت بأذناب الشعاب ويعسل

فهو لا يضع نفسه تحت رحمة أولئك القساة غلاظ الاكباد بل يخرج للصحراء ليكسب طعامه من كد يده كما فعل الذئب في خروجه وبحثه عن طعامه في الشعاب والوديان والجبال .

ومن مظاهر الالتزام الصعلوكي عند الشنفري الفدائية العملية والحرص على الموت :

يا صاحبيَّ هل الحذار مسلمي أو هل لحتف منية من مصرف
إنـي لأعلـم أن حتفـي في التي أخشى لدى الشرب القليل المنزف

فما دام الموت هو النهاية ، فلا عليه من أن يرتكب كل صعب ويذلل كل بعيد وصولاً الى الأهداف التي يريد من ذلك قوله :

وأمشي لدى العصداء أبغـي سراتهم وأسـلك خلاً بـين ارفـاغ فالسرد
كأنـي اذا لم أمس في دار خالد بتيماء لا أهـدى سبيلاً ولا أهدي

فإن هذا المغامر الثائر الأبي لا يبغي الا سراتهم وأشرافهم قتلاً وتنكيلاً . ومن مذهبيته في الصعلكة الاعتزاز بالجماعة في الخروج وفي الغزو والسلب ومن ذلك قوله :

خرجنا فلـم نعهـد وقلـت وصاتنا ثمانية ما بعدهـا مستعتب
سراحين فتيان كأن وجوههم مصـابيح أو لون من الماء مذهب
نمر برهـو الماء صفحـاً وقـد طوت ثمائلنـا والـزاد ظن مغيب

فإن مما يشد عزمته ويقوي إرادتـه خروجـه مع جماعـة يشاركونـه في هدفـه ومقصده وهم ملتزمون بتنفيذ خطة الغزو الجماعي ضد أولئك الأشحاء ومن مظاهر هذه المذهبية التعسف والظلم والجور في أحيان قد تكون كثيرة . إذ لا يميز الشنفري بين المسلوبين وبين الضعفاء والمساكين يقول في خروجه له في ليلة من ليالي الشتاء القارس وفتكه بالرجال وترك النساء أيامى وهذا مما يعكر ويفسد اباء وحمية الشنفري الشهم الغيور :

وليلـة نحس يصـطلي القـوس ربها وأقطعـه اللائـي بهـا يتنبل
دعست على بغش وغـطش وصحبتي سعـار وإرزيز ووجـر وأفكل
فأيمـت نسوانـاً وأيتمـت إلدة وعـدت كما أبـدأت والليل أليل

فهو يتباهى بقوته وشجاعته وفتكه بالرجال ، وترك نسائهم دون عوائل ، ثم إنه ييتم أطفالاً لا ذنب لهم ولا شك أن هذا يدل على اختلال في تفكير الشنفري واضطراب في التصور واختلاط في الأمر عليه يشوبه التعسف والظلم في أحيان كثيرة .

ولا تفارق المباهاة بالشجاعة تفكير الشنفري واكثر ما تكون هذه المباهاة بالتغلب على مظاهر الحياة القاسية الموحشة المخيفة ، فقد تحدث من قبل عن إبائه وشجاعته وفنونه وصبره على الجوع ، ولكنه لم ينس أن يذكرنا بقطعه للصحراء على رجليه في سبيل الهدف الذي وضعه ، وهو الغزو الذي لا يعرف الحدود ، والفتك الذي كان غالباً متعسفاً وفي غير العدل وكم كنا نحمد للشنفري أن يقتل بأبيه فرداً واحداً كعادة العرب في الأخذ بالثأر ولكنه تجاوز الحدود المرعية والاعراف الانسانية عندما قتل عدداً لا يحصى ذكره في شعره ، والأدهى من ذلك أنه كان يتفنن في وسائل القتل والتنكيل حتى إن اعداءه قد فعلوا به مثلما فعل إذ أنهم كانوا يرمون السهام الى عينيه ولكنه كان يرد عليهم بقوله (كاك ، كنا نفعل) .

وقد استغل الشنفري ظروف الصعاليك استغلالاً حسناً في سبيل هدفه من قتل قاتلي أبيه أو قاتلي والد زوجته أو قتل من استعبده وفعلاً وصل الى غاية ما يريد من الانتقام والترويع والتخويف الذي أشاعه عند أعدائه بحيث رصدوا له اكثر من رصد حتى وقع في أيديهم وقتلوه شر قتلة وصلبوه بعد أن أذاقهم من قبل صنوفاً شتى من العذاب والويلات اثناء الغزو والاغارة والسلب .

الفصل الخامس

لامية الشنفري

شرح وتحليل ودراسة

دراسة فنية للامية العرب

رأي الأدباء في لامية العرب

اختلف أدباؤنا القدماء في صحة لامية العرب اختلافاً كثيراً ، بل إن كثيراً منهم قد شكك فيها وزعم أنها ليست للشنفري وهذه أهم أرائهم فيها بين مشكك ومثبت ومتردد .

١ ـ قال أبو علي القالي : (كان أبو محرز (خلف الأحمر) أعلم الناس بالشعر واللغة وأشعر الناس على مذهب العرب ، حدثني أبو بكر بن دريد : أن القصيدة المنسوبة الى الشنفري التي أولها[١]

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل

له وهي من المقدمات في الحسن والفصاحة والطول فكان أقدر الناس على قافيته

٢ ـ اتفق بعض الأدباء والتقت آراؤهم على أن هذه اللامية للشنفري وهم التبريزي والبغدادي والعيني[٢]

وقد شايع الفريق الأول وهي الزعم بأن هذه اللامية لخلف الأحمر كل من ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وابن قتيبة صاحب الشعر والشعراء والجاحظ صاحب كتاب الحيوان ثم كرنكو في دائرة المعارف الاسلامية[٣] .

---

(١) الأمالي حـ ١ ص ١٥٦

(٢) حماسة أبي تمام ٢٣٤/١ وخزانة الأدب ١١٧/٢

(٣) العقد الفريد ٣١٧/٥ الشعر والشعراء ٤٩٧ الى الحيوان ١٨٢/١

أما أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني فقد أورد القصيدة ونسبها الى الشنفري دون تحقيق أو نفي أو اثبات[1]

٣ - وقد وثقها صاحب الطرائف الأدبية اعتماداً على المصادر الأدبية القديمة ونسبها حقيقة الى الشنفري[2]

٤ - وكذلك فعل صاحب كتاب مصادر الشعر الجاهلي الدكتور ناصر الدين الأسد حيث اثبتها مع اللامية التي مطلعها[3]

إن بالشعب إلى جنب سلع لقتيلاً دمه ما يطل

وقد أنكر نسبتها كذلك صاحب كتاب الشعراء الصعاليك دكتور يوسف خليف ونسبها كما فعل ابن دريد الى خلف الأحمر[4] .

أما صاحب كتاب قطوف من ثمار الأدب الدكتور عبد السلام سرحان فقد وثقها وأثبتها للشنفري وقطع بذلك يقيناً[5] .

ومن هذه الروايات يمكن أن نلاحظ للأثر اتجاهات واضحة

الرأي الأول : اتجاه ينكر نسبتها الى الشنفري وعلى رأس هذا الفريق ابن دريد والقالي وأيدهم حديثاً الدكتور خليف .

الرأي الثاني : اتجاه يثبتها للشنفري وعلى رأس هذا الفريق التبريزي والعيني والبغدادي ويؤ يد حديثاً الدكتور الاسد والدكتور أبو ناجي .

الرأي الثالث : اتجاه متردد أو ذكرها دون تحقيق وعلى رأسهم أبو الفرج الأصفهاني وبمناقشة هذه الآراء مناقشة موضوعية يتضح ما يأتي :

أولاً :

إن من اعتقد من القدماء في نسبتها إلى الشنفري اعتمدوا في روايتهم على ابن دريد وهذا لا يقع موقع اليقين إما حقداً على خلف الأحمر وتهويناً لأمره لأنه كان

---

(١) أغاني الاغاني ٩٠٦:٢
(٢) الطرائف الأدبية ص ٣٩
(٣) مصادر الشعر الجاهلي ٤٥٨
(٤) الشعراء الصعاليك ١٨١
(٥) قطوف من ثمار الأدب ص ١٢٣

راوية نادراً أن يجود الزمن بمثله وكان مطلعاً على معظم أشعار العرب . ومن كانت هذه حاله فإن سهام الحسد والاتهام توجه إليه .

وقد وصف الأقدمون خلفاً بأنه كان من أمرس الناس ببيت شعر[1] وليس هناك اتفاق جماعي من قبل الأدباء والرواة عموماً على أن خلفاً قدنحل هذه القصيدة وادعاها لنفسه .

هذا من جانب الرواة أما الجانب الأكثر اهتماماً فإن هذه القصيدة تمثل الجانب الجاهلي تمثيلاً صادقاً ، وصفاً لمظاهرها العربية من صحراء ووديان وحيوان ثم وصفاً للزاوية الأخلاقية لأعراب الصحراء ، فاذا ما تعمقنا في هذه القصيدة تعمقاً داخلياً لوجدنا أنها نابعة من حياة العرب في باديتهم وتصور كل ما يدور في خيالهم من الغزو والسلب ووصف الحيوان وكثرة الألفاظ الخشنة والغريبة فيها ، إذ ليس هناك في المدن ما يناسب جو القصيدة لأنها قطعة من الصحراء بكل مظاهرها ووجوهها ولا يمكن أن تكون من نسج خيال شاعر متحضر كخلف الأحمر قطعاً . ثم إن هذه القصيدة قد نالت من الشروح والاهتمام ما لا نجده عند أي شاعر من شعراء الحضر وقد أربى شرحها على عشرين شرحاً نظراً لاهميتها البالغة[2] وأجزم أن هذه اللامية للشنفري للأسباب الآتية :

١ ـ إن معظم الرواة ينسبونها للشنفري ما عدا ابن دريد الذي ورد ذكره في الأمالي أما ثقات الرواة مثل التبريزي والعيني والبغدادي فهي عندهم ثابتة للشنفري .

٢ ـ هناك حديث شريف روي عن رسول الله ﷺ يقول فيه (علموا أولادكم لامية العرب فإن فيها القناعة والشجاعة)[3] .

٣ ـ نسج على غرار لامية العرب لامية أخرى باسم لامية العجم ولا يمكن أن يحدث هذا من صاحب لامية العجم الا بعد أن اطلع واقتنع أن هذه اللامية للعرب حقيقة وصاحب لامية العجم هو الطغرائي المتوفى عام ٥١٤ هـ

٤ ـ وقد ورد في الأثر أن عمر بن الخطاب قال (علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق)[4] .

---

(١) ابن النديم الفهرست ص ٥٠
(٢) انظر الفهرست لابن النديم بدار الكتب المصرية
(٣) قطوف من ثمار الأدب
(٤) لامية العجم جـ ١ ص ٢٧

٥ ـ إن هذه القصيدة تمثل الحياة الجاهلية للعرب تمثيلاً حقيقياً صادقاً إذ ورد فيها وصف حيوان الصحراء والفقر والجوع والكر والفر والقتل ثم تحدثت بإسهاب عن إباء النفس العربية إذ وصفت أدق مكارم الأخلاق وأسماها علواً وأرفعها شأناً وأكثرها تباهياً من حيث العفة والترفع عن الدنايا وإيثار الموت على الجوع .

٦ ـ شكك بعض الأدباء المحدثين في صحة هذه اللامية من حيث أنها طويلة والصعاليك كانوا بطبعهم ينظمون المقطوعات وأعتقد أن هذا التشكيك بعيد عن الواقع ومرفوض عقلاً ، إذ ربما كان الشنفري في ساعة من فراغ أو في خلوة عن الناس في البيداء ثم جادت نفسه بهذه الأنفاس الشعرية وجاشت بهذه الأنغام السحرية مهما طالت وهو الذي قال التائية التي بلغت أكثر من ثلاثين بيتاً .

٧ ـ زعم المستشرق كرنكو أن قلة ورود الأماكن فيها دليل على عدم صحتها[1] وهذا فرض مردود وغير مقنع إذ لا ينبغي أن تكثر في القصيدة الأسماء الخاصة بالأماكن فقد تحدث الشنفري عن الظواهر النفسية والأخلاقية بصفة عامة ، ولم نجد عند الشعراء الكبار من أكثر من ذكر الاماكن الا بورود بيت أو بيتين في القصيدة .

٨ ـ على أن الذي يزيدنا قناعة بأن هذه اللامية للشنفري وجود الألفاظ الوحشية الغريبة والوصف الدقيق الكامل للحيوان في ثناياها وهذا مطابق للشعر الجاهلي فنياً ومن المعروف عن الشعر العباسي أنه رقيق متحضر وتكثر فيه الألفاظ السهلة المألوفة ، فكيف يكون ذلك حتى لو فرضنا جدلاً أن هذه القصيدة من نظم خلف الأحمر فإنه لن يستطيع أن يأتي بشكل هذه الالفاظ الوحشية الغريبة .

وقصارى القول ومنتهاه فإني أعتقد جازماً أن هذه القصيدة من نظم الشنفري وهي عنوان للحياة العربية في العصر الجاهلي ورمز للاباء والكرامة العربية

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية (الشعراء الصعاليك) ١٨٠

ووصف رائع لما في الحياة الجاهلية من مظاهر خلابة بريئة من صحراء وحيوان ومظاهر عامة وبما اشتملت عليه من أخلاقيات رفيعة لأولئك الأعراب والعرب على السواء .

أهمية لامية العرب :

أوردت من قبل حديثاً مسنوداً لرسول الله ﷺ يقول فيه : « علموا أولادكم لامية العرب فإن فيها القناعة والشجاعة » .

وورد كذلك قول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول فيه (علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق) .

وعلى هذا الأساس انطلق الأدباء العرب يولون هذه اللامية عناية فائقة فقد شرحوها في اكثر من عشرين شرحاً وذلك لأهميتها الأدبية والأخلاقية ولأنها من جانب آخر تنقل لنا حياة العرب في الجاهلية بكل صدق ممثلة لطباعهم فضلاً عن الفوائد الأخرى من وصف لحيوان الصحراء ثم وصف الشجاعة والحث على القناعة والصبر على المكروه ومطالبة الانسان بالارتحال من دار الذل والهوان لدار الحرية والكرامة . ويكفي هذه اللامية خلوداً تعبيرها بكل صدق عن أنفاس نابعة من أعمق أعماق الانسان العربي الأبي الكريم .

تقليد العجم لها ومحاكاتهم إياها :

حاكى العجم العرب في اللامية نظراً لما اشتملت عليه اللامية من فوائد أخلاقية ، ووصف لحياة الانسان في الصحراء ، ووصف النفس الانسانية بأدق أسرارها ، وأخفى خفاياها ، بحيث وصفت الاغتراب عن الأهل ، ثم إنها دعت الى الكرامة والحرية ، في عصر كنا نرى فيه الظلم والشرك يسود الحياة العامة . أما الذي حاكاها فإنه الطغرائي شاعر العجم العظيم وفيلسوفها الكبير ومطلع لامية العجم هو[1] :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل ... وحيلة الفضل زانتني لدى العطل

---

(١) شرح لامية العجم حـ ١

وقد حاول الطغرائي السير على نهج شاعر العرب الشنفري في اللامية من حيث المعاني والألفاظ والموضوعات ، ولكنه لم يصل الى ما وصل اليه الشنفري في صدق التعبير وسمو الأفكار ، وبراعة الإسلوب ، وبراءة التفكير ، وعمق الخيال ، ورقة الشعور ، وصفاء الروح ، وعذوبة الحركات ، وشجاعة الفؤاد ، واكتمال البناء الفني ، وتوسع الايحاءات المعبرة بصدق عن العالم الداخلي للانسان ، نفساً وتصوراً وكرامة وحرية ومطالبة بالعدل ،الا أن العجم كانوا يفتخرون بأن لهم لامية كلامية العرب تحاكيها في الحكم والأمثال والقواعد الأخلاقية العامة ، وقد تولى شرح لامية العجم الشيخ صلاح الدين الصفدي الشامي الأصل المتوفى سنة ٧٦٤ هـ . وقد توسع شارحها توسعاً كبيراً في شرحها بحيث تناول الجانب النحوي والتفسير الشامل للألفاظ واستشهد بكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار في عصور شتى مستنداً على ذلك لتفسير ما يريد ، وللدلالة على معاني الكلمات الغامضة فجاء شرحها وافياً مستكملاً لعناصرالقصيدة حتى إنه لم ينس أن قارن الشارح بين معاني أبياتها ومعاني الأبيات الأخرى من الشعر العربي .

اهتمام الأدباء والشراح بها :

نالت اللامية العربية من الشرح والتفسير ما لم تنله أية قصيدة أخرى ، إذ تناولها بالشرح كبار الأدباء أمثال الزمخشري والبغدادي ثم ذكرها صاحب الأغاني في كتابه وذكرها القالي في أماليه . وقد أربى عدد شروحها على عشرين شرحاً ذكرها فهرس دار الكتب المصرية[1] ولعل السر في ذلك يرجع الى أهميتها البالغة القيمة إذ تناولت وصف الحياة العربية وصفاً يكاد يكون متلازماً مع الصورة الاصيلة ، ثم إنها تشتمل على كثير من الألفاظ اللغوية الغريبة ثم تبين حياة الصعاليك بالذات .

ويعد شرح (أعجب العجب في شرح لامية العرب) للزمخشري من أوسع

---

(١) الشعراء الصعاليك ص ١٨١

الشروح الأدبية وأصفاها وأكملها إذ أنه اعتمد على أكثر من جانب في الشرح لغة ونحواً وصرفاً وشعراً ونثراً .

وقد تناولها بالشرح كذلك المبرد صاحب كتاب الكامل في الأدب إذ شرحها وغلب على شرحه الجانب النحوي ولكنه لم يتوسع كما توسع الزمخشري . ولعل ما ذكرناه من أن اهتمام الأدباء قديماً وحديثاً يرجع لما في هذه القصيدة من وصف دقيق عن أحوال العرب في الجاهلية . وخاصة أولئك الفقراء أو الصعاليك ويصح أن نطلق عليها (عالم الصعاليك الفسيح) أو (منهاج الصعاليك في الحياة) .

حاجتنا الماسة لتنشئة الشباب على الأخلاق الكريمة :

تشتمل لامية الشنفري على قواعد أخلاقية سليمة ، وفي طياتها دعوة الى حياة الحرية والكرامة ومحاربة الذل والخنوع ، ثم إن فيها من الحث على الصبر على مشقات الحياة ، ما يدعو المرء الى الاقتداء بمثل هذه القيم المثالية الأخلاقية ، التي ترتاح اليها النفس ويطمئن إليه الفؤاد بما لا يتعارض بقواعد الشرع الشريف ، وقد جاءت هذه اللامية انفاساً حارة ، من شاعر خبر الحياة الصحراوية ،وسبر أغوارها ، وما من بيت من أبياتها الا وفيه حكمة وعظة مما دعا الرسول اليه وفي القول المأثور (الحكمة ضالة المؤمن) وقد قال رسول الله ﷺ : « علموا أولادكم لامية العرب فإن فيها القناعة والشجاعة » ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه (علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق) .

وقد ورد فيها من النصائح الصحية ما اكتشفه الطب الحديث من فوائد عديدة وخاصة في الإقلال من الطعام وعدم الافراط فيه . ثم إن فيها من الصبر على المكاره وعدم قبول الصدقة من أي محسن إلا بكد وتعب حتى إن الرسولﷺ كان يعجب بقول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله — حتى أنال به كريم المأكل

وهذه القصيدة بأبعادها المشرقة مثل صالح للشباب لأن تكون تربيتهم

على الشدة والبأس والصبر على المكاره ، ثم إنها تبعد عنهم شبح الترف الذي يبطر النفس ويفسدها ويطرد عنهم الطراوة والرخـاوة فإذا ما جد الجـد كان هؤلاء الشباب شجعاناً أقوياء ، وقد كان عمر بن الخطـاب رضي الله عنـه يقول (اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم) ولعلنا نعرف سيرته الكريمة عندما كان يعامل نفسه معاملة بقية الرعية وكان من أولئك الصحب الكرام والذين نشأوا في أحضان الاسلام وتربوا على مبادىء الايمان أن فتحوا العالم بأسره شرقـه وغربه وقهروا الامبراطوريات الرومانية والفارسية .

ويقول الله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »[1]

وحبذا لو أن شباب العروبة والاسلام نشأوا على شيء من الصلابة والخشونة وتحملوا بعض المشقات واغتنموا قوة شبابهم وفراغ ظروفهم فاستفادوا منها فيما يعود عليهم بالنفع والفائـدة والانصراف عن المغـريات واللهـو ومـا قصيدة الشنفري الا مثل أعلى في الحث على ذلك عملياً .

---

(١) الاسراء آية ١٦

لامية العـــرب

نص القصيدة برواية الأمالي

١ ـ أقِيمُــوا بَنِــي أُمِّــي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ .
فإنِّــي إلَــى أهْــلٍ سِوَاكُمْ لأَمْيَــلُ[١]

٢ ـ فَقَــدْ حُمَّــتِ الحَــاجَاتُ وَاللَّيْــلُ مُقْمِــرٌ
وَشُــدَّتْ لِطِيَّــاتــي مَطَــايَا وَأَرْحُــلُ[٢]

٣ ـ وَفِــي الأَرْض مَنْــأًى لِلْــكَرِيــمِ عَــنِ الأَذَى
وَفِيهَــا لِمَــنْ خَــافَ القِلَــى مُتَعَــزَّلُ

٤ ـ لَعَمْــرُكَ مَــا بالأرْضِ ضِيــقٌ على امْــرِئٍ
سَرَى رَاغِبــاً أَوْ رَاهِبــاً وهــو يَعْقِــلُ

٥ ـ وَلِــي دُونَــكُــمْ أَهْلُــونَ سِيــدٌ عَمَلَّــسٌ
وَأَرْقَــطُ زُهْلُــولٌ وَعَــرْفَــاءُ جَيْــأَلُ

٦ ـ هُــمُ الــرَّهْــطُ لاَ مُسْــتَوْدَعُ السِّــرِّ شَائِعٌ
لَــدَيْهِــمْ ولاَ الجَــانِي بِمَــا جَــرَّ يُخْذَلُ[٣]

٧ ـ وكــلٌ أبِــيٌّ بَاسِــلٌ غَيْــرَ أنَّنِــي
إذَا عَرَضَــتْ أُولَــى الطَّــرَائِــدِ أبْسَــلُ

٨ ـ وَإِنْ مُــدَّتِ الأَيْــدِي إِلَــى الــزَّادِ لَــمْ أكُــنْ
بــأَعْجَلِهِــمْ إذْ أَجْشَــعُ القَــوْمِ أعْجَــلُ

٩ ـ ومــا ذاكَ إلاَّ بَسْــطَــةٌ عــن تَفَضُّــلٍ
عليهِــمْ وكــانَ الأفْضَــلَ المُتَفَضِّــلُ

---

(١) من الطرائف الأدبية (الى قوم)

(٢) وفي رواية لطيات بغير إضافة

(٣) في رواية هم الأهل بدل (رهط)

١٠ - وَإِنِّي كَفَانِي فَقْدَ مَنْ لَيْس جَازِياً
بِحُسْنَى وَلاَ فِي قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ

١١ - ثَلاثَةُ أَصْحَابٍ فُؤَادٌ مُشَيَّعٌ
وَأَبْيَضُ إِصْلِيتٌ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ

١٢ - هَتُوفٌ مِن المُلْسِ الحِسَانِ يَزِينُهَا
رصَائِعُ قد نِيطَتْ عَلَيْهَا وَمِحْمَلُ[1]

١٣ - إِذَا زَلَّ عنها السَّهْمُ حَنَّتْ كَأَنَّهَا
مُرَزَّأَةٌ[2] ثَكْلَى تَرِنُّ وَتُعْوِلُ

١٤ - وَلَسْتُ بِمِهْيَافٍ يُعَشِّي سَوَامَهُ
مُجَدَّعَةً سُقْبَانُهَا وَهْيَ بُهَّلُ

١٥ - وَلاَ جُبَّأٍ أَكْهَى مُرِبٌّ بِعِرْسِهِ
يُطَالِعُهَا فِي شَأْنِهِ كَيفَ يَفْعَلُ

١٦ - وَلاَ خَرِقٍ هَيْقٍ كَأَنَّ فُؤَادَهُ
يَظَلُّ بِهِ المُكَّاءُ يَعْلُو وَيَسْفُلُ

١٧ - وَلاَ خَالِفٍ دَارِيَّةٍ مُتَغَزِّلٍ
يَرُوحُ وَيَغْدُو دَاهِناً يَتَكَحَّلُ[3]

١٨ - وَلَسْتُ بِعَلٍّ شَرُّهُ دُونَ خَيْرِهِ
أَلَفَّ إِذا ما رُعْتَهُ اهْتَاجَ أَعْزَلُ

١٩ - وَلَسْتُ بِمِحْيَارِ الظَّلامِ إِذا انْتَحَتْ
هُدَى الهَوْجَلِ العِسِّيفِ يَهْمَاءُ هَوْجَلُ

---

(١) في رواية المتون (٢) في رواية عجلى بدل الثكلى

(٣) في نسخة قبل هذا البيت وعليها شرح الزمخشري والبيت هو

ولا خرق هيق كأن فؤاده يظل به المسكاء . يعلو ويسفل

٢٠ - إذ الأَمْعَــزُ الصَّوَّانَ لاَقَى مَنَاسِمِي
تَطَــايَــرَ مِنْــهُ قَــادِحٌ وَمُفَلَّــلُ

٢١ - أُدِيمُ مِطَالَ الجُوْعِ حتى أُمِيتَهُ
وَأَضْــرِبُ عنه الــذِّكْــرَ صَفْحــاً فأَذْهَلُ

٢٢ - وَأَسْتَـفُّ تُـرْبَ الأَرْضِ كـي لاَ يَـرَى لَهُ
عَلَــيَّ مـن الـطَّوْلِ امْـرُؤٌ مُتَطَـوِّلُ

٢٣ - ولـولا اجْتِنَـابُ الـذَّامِ لـم يُبْـقَ مَشْـرَبُ
يُعَـاشُ بـه إلاَّ لَدَيَّ وَمَأْكَــلُ[1]

٢٤ - ولـكـنَّ نَفْسـاً حُـرَّةً لاَ تُقِيـمُ بِـي
عَلَـى الضَّيْمِ إلاَّ رَيْثَمـا أَتَحَـوَّلُ[2]

٢٥ - وَأَطْـوِي عَلَـى الْخَمْـصِ الْحَـوَايَا كمـا انْطَـوَتْ
خُيُـوطَـةُ مَارِيٍّ تُغَـارُ وَتُفْتَـلُ

٢٦ - وَأَغْـدُو عَلَـى الْقُـوتِ الـزَّهِيـدِ كمــا غَـدَا
أَذَلُّ تَهَـادَاهُ التَّنَـائِفُ أَطْحَـلُ

٢٧ - غَـدَا طَاوِيـاً يُعَـارِضُ الـرِّيحَ هَافِيـاً
يَخُـوتُ بِأَذْنَـابِ الشِّـعَابِ وَيَعْسِـلُ

٢٨ - فَلَمَّـا لَـوَاهُ الْقُـوتُ مِنْ حَيْـثُ أَمَّـهُ
دَعَـا فَأَجَـابَتْـهُ نَظَـائِـرُ نُحَّـلُ

٢٩ - مُهَلْهَلَـةٌ شِيـبُ الـوُجُـوهِ كَأَنَّهَـا
قِـدَاحٌ بِكَفَّـيْ يَاسِـرٍ تَتَقَلْقَـلُ[3]

---

(١) في رواية (لم يلف) وفي الزمخشري الذام

(٢) في رواية نفس حرة بل حسرة

(٣) في رواية أقداح حواها ياسر بتقلقل

٣٠ ـ أوِ الْخَشْـرَمُ المَبْعُـوثُ حَثْحَـثَ دَبْرَهُ
مَحَـابِيـضُ رَدَّاهُـنَّ سَـامٍ مُعَسِّـلُ[(١)]

٣١ ـ مُهَـرَّتَـةٌ فُـوهٌ كَأَنَّ شُـدُوقَهَا
شُـقُـوقُ العِصِـيِّ كالِحَـاتٌ وَبُسَّـلُ

٣٢ ـ فَضَـجَّ وَضَـجَّتْ بالبَرَاحِ كأنهـا
وَإِيَّـاهُ نُـوحٌ فَـوْقَ عَلْيـاءَ ثُكَّـلُ[(٢)]

٣٣ ـ وَأَغْضَـى وَأَغْضَـتْ وَأْتَسَـي وَأْتَسَـتْ بِـهِ
أَرَامِـلُ عَزَّاهَـا وَعَـزَّتْـهُ أَرْمَـلُ[(٣)]

٣٤ ـ شَـكَـا وَشَـكَتْ ثم ارْعَـوَى بَعْـدُ وَارْعَـوَتْ
وَلَلصَّـبْـرُ إِنْ لَمْ يَنْفَـعِ الشَّـكْـوُ أَجْمَـلُ[(٤)]

٣٥ ـ وَفَـاءَ وَفَـاءَتْ بَـادِرَاتٍ وَكُلُّهَـا
عَلَـى نَكَـظٍ مِمَّـا يُكَاتِـمُ مُجْمِلُ

٣٦ ـ وَتَشْـرَبُ أَسْـآرِي القَـطَـا الْـكُـدْرُ بَعْـدَمَا
سَرَتْ قَرَبـاً أَحْشَـاؤُهَـا تَتَصَلْصَـلُ[(٥)]

٣٧ ـ هَمَمْـتُ وَهَمَّـتْ وَابْتَـدَرْنَـا وَأَسْدَلَـتْ
وَشَـمَّـرَ مِنِّـي فَـارِطٌ مُتَمَهِّـلُ[(٦)]

٣٨ ـ فَـوَلَّيْـتُ عنهـا وَهْـيَ تَكْبُـو لِعُقْـرِهِ
يُبَـاشِـرُهُ منهـا ذُقُـونٌ وَحَوْصَـلُ

---

(١) في نسخة الزمخشري (ارداهن سام) وأرداهن أنزلهن وسام مرتفع
(٢) في رواية اذا هي ضجت بدل فضج
(٣) في رواية مراميل ومرمل بدلم أرامل وأرمل
(٤) في رواية باديات ونكظ تصحيف والأصح على نكظ
(٥) في رواية أحناؤها
(٦) في رواية (وابتدرنا وقصرت)

٣٩ ـ كَأَنَّ وَغَاهَا حَجْرَتَيْهِ وَحَوْلَهُ
أَضَامِيمُ مِن سُفْلَى الْقَبَائِلِ نُزَّلُ

٤٠ ـ تَوَافَيْنَ مِن شَتَّى إِلَيْهِ فَضَمَّهَا
كَمَا ضَمَّ أَذْوَادَ الأَصَارِيمِ مَنْهَلُ

٤١ ـ فَعَبَّتْ غِشَاشاً ثم مَرَّتْ كَأَنَّها
مع الصُّبْحِ رَكْبٌ من أُحَاظَةَ مُجْفِلُ

٤٢ ـ وَآلَفُ وَجْهَ الأَرْضِ عند افْتِرَاشِهَا
بِأَهْدَأَ تُنْبِيهِ سَنَاسِنُ قُحَّلُ[1]

٤٣ ـ وَأَعْدِلُ مَنْحُوضاً كَأَنَّ فُصُوصَهُ
كِعَابٌ دَحَاهَا لَاعِبٌ فهي مُثَّلُ

٤٤ ـ فَإِن تَبْتَئِسْ بِالشَّنْفَرى أُمُّ قَسْطَلٍ
لَمَا اغْتَبَطَتْ بِالشَّنْفَرى قبلُ أَطْوَلُ[2]

٤٥ ـ طَرِيدُ جِنَايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ
عَقِيرَتُهُ لأَيِّهَا حُمَّ أَوَّلُ

٤٦ ـ تَبِيتُ إِذَا مَا نَامَ يَقْظَى عُيُونُهَا
حِثَاثاً إِلَى مَكْرُوهِهِ تَتَغَلْغَلُ[3]

٤٧ ـ وَإِلْفُ هُمُومٍ مَا تَزَالُ تَعُودُهُ
عِيَاداً كَحُمَّى الرِّبْعِ أَوْ هِيَ أَثْقَلُ

٤٨ ـ إذا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُهَا ثم إِنَّهَا
تَثُوبُ فَتَأْتِي مِنْ تُحَيْتِ ومن عَلُ

---

(١) في رواية تنثية وتنية
(٢) في رواية قسطل بدل قصطل والصحيح رواية الزمخشري وهي قسطل
(٣) في رواية الزمخشري تنام إذا ما نام بدل تبيت

٤٩ - فَـإِمَّا تَرَيْنِـي كَابْنَـةِ الـرَّمْلِ ضَاحِيـاً
على رِقَّـةٍ أَحْفَى ولا أَتَنَعَّـلُ[١]

٥٠ - فَـإِنّي لَمَوْلَـى الصَّـبْرِ أَجْتَـابُ بَزَّهُ
على مِثْلِ قَلْبِ السِّمْعِ والْحَزْمَ أفْعَـلُ[٢]

٥١ - وأُعْـدِمُ أَحْيَانـاً وَأُغْنَـى وَإِنما
يَنَـالُ الْغِنَـى ذو الْبُعْـدَةِ الْمُتَبَـذِّلُ

٥٢ - فـلا جَـزِعٌ لِخَلَّـةٍ مُتَكَشِّـفٌ
ولا مَـرِحٌ تحـت الْغِنَـى أَتَخَيَّـلُ[٣]

٥٣ - ولاَ تَـزْدَهِـي الأَجْهَـالُ حِلْمِـي ولا أُرَى
سَئُولاً بِأَعْقَـابِ الأَحَـادِيثِ أَنْمِـلُ[٤]

٥٤ - وَلَيْلَـةِ نَحْـسٍ يَصْـطَلِي الْقَـوْسَ رَبُّهَـا
وَأَقْـطُعَـهُ الـلاَّتِـي بهـا يَتَنَبَّـلُ[٥]

٥٥ - دَعَسْـتُ على بَغْـشٍ وَغَـطْـشٍ وَصُحْبَتِي
سُـعَـارٌ وَإِرْزِيـزٌ وَوَجْـرٌ وَأَفْكَـلُ[٦]

٥٦ - فَـأَيَّمْـتُ نِسْوَانـاً وَأَيْتَمْـتُ إِلْـدَةً
وَعُـدْتُ كَمـا أَبْـدَأْتُ وَاللَّيْـلُ أَلْيَـلُ

٥٧ - فَأَصْـبَـحَ عَنِّي بِالْغُمَيْصَـاءِ جَالِسـاً
فَـرِيقَـانِ مَسْئُـولٌ وَآخَـرُ يَسْـأَلُ[٧]

---

(١) في رواية الزمخشري على رقة بدل رقبة أتسربل بدل أنتعل
(٢) في رواية الزمخشري والحزم الفل ويروي وأفعل مولى الصبر
(٣) في رواية نحلة بدل من خلة
(٤) في رواية بدل الأحاديث الأقاويل
(٥) في رواية الزمخشري وأقطعه اللاتي .
(٦) في الزمخشري على غطش وبغش
(٧) في رواية الزمخشري وأصبح بدل فأصبح

٥٨ ـ فقالوا : لقد هَرَّتْ بلَيلٍ كِلابُنا
فقُلْتُ : أذِئبٌ عَسَّ أمْ عَسَّ فُرْعُلُ؟[1]

٥٩ ـ فلم يَكُ إلاّ نَبْأةٌ ثم هَوَّمَتْ
فقلنا قَطاةٌ ريعَ أمْ ريعَ أجْدَلُ[2]

٦٠ ـ فإن يكُ من جِنٍّ لأبْرَحُ طَارِقاً
وإن يكُ إنساً مَاكَهَا الإنْسُ يَفْعَلُ[3]

٦١ ـ ويَومٍ من الشِّعْرَى يذوبُ لُوَابُهُ
أفاعِيهِ من رَمْضَائِهِ تَتَمَلْمَلُ[4]

٦٢ ـ نَصَبْتُ له وَجْهِي ولاكِنٌّ دُونَهُ
ولا سِتْرَ إلاَّ الأتْحَمِيُّ المُرَعْبَلُ

٦٣ ـ وضَافٍ إذَا هَبَّتْ له الرِّيحُ طَيَّرَتْ
لَبَائِدَ عن أعْطَافِهِ مَا تُرَجَّلُ

٦٤ ـ بَعِيدٌ بِمَسِّ الدُّهْنِ والفَلْيِ عَهْدُهُ
له عَبَسٌ عَافٍ من الغِسْلِ مُحْوِلُ

٦٥ ـ وخَرْقٍ كَظَهْرِ التُّرْسِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ
بِعَامِلَتَيْنِ ظَهْرُهُ لَيْسَ يُعْمَلُ

٦٦ ـ فَألحَقْتُ أوْلاهُ بأُخْرَاهُ مُوفِياً
عَلَى قُنَّةٍ أُقْعِي مِرَاراً وأمْثُلُ

٦٧ ـ تَرُودُ الأرَاوِي الصُّحْمُ دُونِي كَأنَّهَا
عَذَارَى عَلَيْهِنَّ المُلاءُ المُذَيَّلُ[5]

٦٨ ـ وَيَرْكُدْنَ بالآصَالِ حَوْلِي كَأنَّنِي
مِنَ العُصْمِ أدْفَى يَنْتَحِي الكِيحَ أعْقَلُ[6]

---

(١) في رواية الزمخشري فقلنا أذئب عس بدل فقلت
(٢) في الزمخشري فلم تك
(٣) في الزمخشري تفعل بدل يفعل
(٤) في الزمخشري في رمضائه
(٥) في الزمخشري (حولي كأنما) بدل دوني كأنها
(٦) في رواية أدفى يلتحي .

شرح القصيدة

١ - أقيموا بني أمي صدور مطيكم	فإني إلى قوم سواكم لأميل
٢ - فقد حمت الحاجات والليل مقمر	وشدت لطياتي مطايا وأرحل
٣ - وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى	وفيها لمن خاف القلى متعزل
٤ - لعمرك ما بالأرض ضيق على امرىء	سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل

معاني الكلمات :

أقام صدر مطيته اذا جد في السير أو جد في أي أمر ، لأميل : لأرغب في أهل غيركم ، حمت الحاجات : اتضحت النيات وظهر العزم على السير ، وحم بمعنى قدر وهيء ، والليل مقمر : أي مضيء ، طيات : جمع طية وهي النية والحاجة مطايا : جمع مطية وهي ما يركبه المرء ، وأرحل : جمع رحل وهو ما يوضع على ظهر الدابة ، منأى : اسم مكان من نأى اذا بعد .

الشرح :

تنطلق هذه الأبيات من نبع واحد وتسير على نهج سوى ، إذ أنه في البيت الأول يؤذن أهله برغبته في الرحيل ، لأنه لم يجد عندهم ما يسر ويلذ وقد اتضحت الغايات وحددت إلى هذه النية التي عقد العزم عليها ثم إن وسائل المسير متوفرة وهي دواب الرحيل وما الرغبة في المسير الا هرباً من الأذى وهجر أهل لا يحبون قربه ولا يقدرونه أما بحال الارتحال فهو الأرض الفسيحة وهي واسعة لكل راغب للهجرة وكاره لحياة الذل . وفي هذه الأبيات دعوة صريحة لعشق حياة الغزو والكرامة والإباء قلما نجدها الا عند القليل من شعراء الجاهلية .

٥ - ولي دونكم أهلون سيد عملس	وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
٦ - هم الرهط لا مستودع السر شائع	لديهم ولا الجاني بما جر يخذل
٧ - وكلٌ أبيٌ باسلٌ غير أنني	إذا عرضت أولى الطرائد أبسل

معاني الكلمات :

سيد : بكسر السين الذئب والأنثى سيدة ، وربما سمى الأسد سيداً والعملس : القوي على السير السريع ، والأرقط : النمر فيه نقط بيض والزهلول : الأملس ، جيأل : اسم للضبع وهو معرفة على وزن فيعل وعرفاء : اسم للضبع

ويقال لها عرفاء لكثرة شعر رقبتها ، الرهط : الجماعة وشائع : منتشر ، الجاني : الذي جنى جناية ، والجريرة : الذنب يخذل : لا ينصر ولا يعان ، الأبي : الصعب الممتنع عن الذل والضيم باسل : شجاع جريء ، وعرضت : ظهرت ، أولى : مؤ نث أول الطريدة ، ما طردت من صيد وغيره لكنها هنا بمعنى الفرسان والكتائب المهاجمة ، أي أنه يهاجم الفرسان بشجاعة واقدام دون غيره ، أبسل : أهجم ببسالة وشجاعة

والمعنى :

في هذه الأبيات الثلاثة صورة ناطقة من نفسية الشنفري فهو نظراً لعيشه مع الصعاليك واقتدائه بهم وبعده عن الأهل فإنه يفضل أقرانه الصعاليك الذين يشبهون هذه الحيوانات من الشجاعة والإقدام ، إنه يفضلهم على قومه لأنه يرتاح نفسياً وقلبياً عندهم فهو منصور بهم ، وهم يحافظون على سره الذي أطلعهم عليه ، وكل أصحابه شجعان فرسان لكنه يقود هؤ لاء الفرسان في ميدان القتال بكل بسالة وجرأة وإقدام ونلاحظ أنه انتزع هذه الصورة الجميلة من واقعه الذي عاش به وتأثرت أخلاقه بما فيه . وعلى أية حال فإن الشنفري هنا يعتبر الحيوان الرفيق الأوفى له ويفضله على بني آدم الذي امتهن كرامته ولم يرع حقه .

احتشام وأدب جم :

٨ ـ وإن مدت الأيدي الى الزاد لم أكن   بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

٩ ـ وما ذاك الا بسطة عن تفضل   عليهم وكان الافضل المتفضل

معاني الكلمات :

الزاد : الطعام أو ما يؤ كل والعرب تمدح عدم الشره على الطعام والباء في بأعجلهم زائدة ، دخلت على خبر الكون المنفي ، واجشع أفعل تفضيل من الجشع وهو أشد الحرص ، وأعجل : الأول بمعنى عجل والبسطة : السعة والتفضل : الاحسان والانفاق ، واسم كان متأخر هو المتفضل وخبرها مقدم هو الأفضل .

والمعنى :

يحلق الشنفري في عالم فريد من حيث تميزه بخصائص معنوية فذة في طريق

تناول الطعام ، فهو ذو نفس رفيعة أبية وقدر شامخ لا يطأه أحد ، وهو لا يستعجل أثناء تناول الطعام في حين يكون غيره مستعجلاً في تناول اللقمات أو في ازدراد الطعام والسر في ذلك يرجع الى أن نفسه مترفعة عن ذلك إحساناً وإنفاقاً وهنا من أخلاق الرجال الأحرار ذوي النفوس الأبية والتي تدل على القناعة وهذان البيتان يحكيان لنا كيف أن بعض الصعاليك رغم تناقضاتهم العديدة كانوا يتمتعون بقدر عظيم من الاحتشام والأدب في تناول الزاد .

١٠ - وإني كفاني فقد من ليس جازيا بحسنى ولا في قربه متعلل
١١ - ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع وأبيض إصليت وصفراء عيطل
١٢ - هتوف من الملس الحسان يزينها رصائع قد نيطت عليها ومحمل
١٣ - اذا زل عنها السهم حنت كأنها مرزأة ثكلى ترن وتعول

معاني الكلمات :

إني يقصد بها نفسه ،والحسنى؛ مؤنث الأحسن وهي لين الجانب والصفح الجميل متعلل : متلهى ، مشيع : ثابت وهو مأخوذ من لفظ الشيعة أي الجماعة والأعوان ، أبيض : بمعنى سيف ، اصليت المسلول للقتال ، والصفراء : القوس المصنوعة من النبع ، العيطل : القوية المتينة وقد قال المبرد في هذا لا أعرف أحداً وصف القوس بصفة غير الشنفري ، والهتوف : المحفوظة والمصونة ، وهي صيغة مبالغة من قوس هيفى . والملس : جمع ملساء وهي الناعمة المملس والرصائع : جمع رصيعة ، وهي حلق من جوهر وغيره ، وقيل هي الستور التي تزين وترقش بها السيور ، نيطت : علقت ، والمحمل : ما يحمل بها السيف ، زل : خرج من القوس وحنت : صوتت صوتاً يشبه الحنين . والمرزأة : من الارزاء وهي المصائب أي أنها ذات خطوب فادحة . والثكلى : التي فقدت وحيدها من ابن أو والد والرنين : الصوت . والاعوال : البكاء بصوت عالٍ .

والمعنى العام :

يركز الشنفري على أهمية السلاح ووسائل القتال بأنه قد عوض عن الأبطال الشجعان بالأسلحة المذكورة ، وهي تغنيه عن الأنصار والسهم عند خروجه من

مكانه يحدث صوتاً ويشبه القوس بالمرأة التي تبكي لفقد عزيزها .

هنا ينحو الشنفري منحى آخر في لاميته إذ أنه يعتمد على أشياء معنوية كقوة قلبه ورباطة جأشه ثم على أشياء مادية كالأسلحة التي تساعده على الهجوم والكر والفر والقتال ثم لا ينسى أن يتحفنا بعجائب الوصف وغرائب التعبير وحلاوة المعاني وبلاغة الكلام وصدق التفكير .

شجاعة واقدام وحماسة ورجولة

١٤ ـ ولست بمهياف يعشي سوامه مجدعة سقبانها وهي بهل

١٥ ـ ولا جبأ أكهى مرب بعرسه يطالعها في شأنه كيف يفعل

١٦ ـ ولا خرق هيق كأن فؤاده يظل به المكاء يعلو ويسفل

١٧ ـ ولا خالف دارية متغزل يروح ويغدو داهناً يتكحل

١٨ ـ ولست بعل شره دون خيره ألف اذا ما رعته اهتاج أعزل

١٩ ـ ولست بمحيار الظلام اذا نحت هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل

٢٠ ـ اذا الأمعز الصوان لاقى مناسمي تطاير منه قادح ومفلل

معاني الكلمات :

المهياف : الذي لم يظمأ بسرعة ، والذي ينطلق بإبله إلى الأماكن النائية ، يعشي : يعود مساء ، وسوائمه : جمع سائمة ، وهي الإبل ومجدعة : الضعيفة والهزيلة في الغذاء ، وسقبانها : جمع سقب ولد الناقة ، الجبأ : الجبان ، والأكهى : السيء الخلق ، والمرب : المقيم بالبيت مع النساء ، لا يقوى على فراقهن يطالعها يشاورها في أمره ، والخرق : الخائف الرعديد ، والهيق : الظليم والمكاء : طائر يتصعد ويتسفل في طيرانه ، الخالف : المتخلف عن الفضائل والداري : الذي لا يباين منزله ، ومتغزل : الذي يتغزل بالنساء ، ويروح : يرجع مساء ، والغدو : الخروج والذهاب صباحاً ، داهناً : يضع الطيب ويتكحل . والأمعز : المكان الصلب الذي فيه حصى ، والصوان : الحجارة الملس ، المناسم : جمع منسم وهو الخف أو القدم ، وقادح ما تطاير منه شرر ، والمفلل : المكسر ، والمحيار : شديد الحيرة ، نحت : قصدت ، الهوجل : الوعر ، والعسيف : السائر على غير هدى ، واليهماء : الفلاة .

والمعنى العـــام :

تشترك هذه الأبيات السبعة المتوالية في نفي صفات وإثبات صفات فهـو في الأول ينفي عن نفسه الظمأ السريع وينفي كذلك القسوة عن نفسه بل هو صابـر رحيم وفي الثاني ينفي الجبن والتعلق بالنساء دوماً ويثبت لنفسه الشجاعة والصلابة وعدم الاكتراث بالنساء وفـي الثالث ينفي عن نفسه الخوف والاضطراب والانفعال ويثبت لنفسه الجرأة وينفي كذلك التخلف عن المكارم بل إنه مقدام لا تؤخره امرأة مدهناً مرة ومتكحلاً أخرى ونفى عن نفسه عدم الالتفات للآخرين بل إنه دوماً يقظ متنبه لكل زائر ثم إنه ليس جاهلاً بالدروب والجبال وسبل السير بل إنه مطلع وعالم بها لأنه تربى في احضان الطبيعة خبرة ودراية وأخيراً يبين مدى صبره على قسـوة الأرض التي يسير عليها وكيف أنه لا يتأثر بها بل اعتاد على السرعة في السير والاقدام في المخاطر دون رعب أو وجل .

وهذه الأبيات تمثل خالص الصبر وعظيم الثبات ثم يعطينا الشنفري صورة حية لحياته في الصحراء وفي نظرته للناس وعدم اكتراثه بالمشقات والمعوقات بل تحديه لهذه الظواهر العنيفة والتي تهز شخصية الإنسان الذي يعيش بها .

٢١ ـ أديم مطـال الجـوع حتـى أميته	وأضرب عنـه الـذكر صفحـاً فأذهل
٢٢ ـ وأستـف ترب الأرض كي لا يرى له	علي من الطـول امـرؤ متطول
٢٣ ـ ولـولا اجتنـاب الـذام لم يبـق مشرب	يعـاش به الا لدي ومأكل
٢٤ ـ ولـكن نفسـاً حرة لا تقيم بـي	على الضيم الا ريثمـا أتحول
٢٥ ـ وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت	خيوطـة ماري تغـار وتفتل
٢٦ ـ وأغـدو على القـوت الـزهيد كما غدا	أذل تهـاداه التنـائـف أطحل
٢٧ ـ غـدا طاوياً يعـارض الـريح هافيا	يخـوت بأذنـاب الشعـاب ويعسل
٢٨ ـ فلما لواه القـوت من حيث أمه	دعـا فأجـابتـه نظائـر نحـل

معاني الكلمات :

المطال : المماطلة وتأخير الوقـت ، والصفـح : الترك ، أذهـل : أنسى ، استف : ابتلع دون نظر فيه ، الطـول : الفضـل ، والـذام : العيب او الشنـار ، الحرة : الحمية والأبية والحرة القوية الشديدة المراس ، الضيم : الذل والخضوع ، الخمص : ضمـور البطن وانطـواه ، والحـوايا : جمع حوية ، وهـي الامعاء ،

والخيوطة : الخيوط ، والزهيد : القليل ، القوت : ما يقتات به ، والاذل : الذئب وتتهاداه: تتسلمه والتنائف : جمع تنوفة ، والأطحل : هو اللون المغبر ، طاوياً : جائعاً والطوى الجوع ، والهافي : الذي يجوع بسرعة أو الذي يذهب يميناً وشمالاً من شدة الجوع ،ويخوت : يخطف ويختلس ، وأذناب الشعاب : أواخرها ، ويعسل : يمشي خبباً أي سريعاً ، لواه : منعه من الوصول للأماكن الخصبة وأم: قصد ، والنظائر : جمع نظيرة هي الأشباه من الذئاب والنحل: جمع ناحل وهي المهازيل .

والمعنى :

يدور معنى هذه الأبيات جميعاً حول صبر الشنفري على الجوع ، من ذلك ما يفصله من أنه لا يلقى بالاً للسعات الجوع ، حتى إنه لينسى أنه جائع ، ويتناول التراب سفاً من أن يتناول الطعام الشهي الطيب من المتصدقين ، والذي منعه من أخذ ذلك من المحسنين هو العيب والترفع ونفسه الكريمة الأبية الصفية مترفعة عن ذلك الضيم ، وهو يطوي امعاءه كالخيوط ، وهذا كناية عن الجوع القاتل الذي كان يتعرض له أحياناً كثيرة . ثم إنه يقدم على الزاد القليل بتعبه وجده وكده وعرق جبينه ، كالذئب الذي يكد للحصول على لقمة العيش ، والذي يسير من مكان لمكان ، جائعاً ساغباً بحثاً عن الزاد . وقد دعا بعدما أتعبته الحيلة أصدقاءه الذئاب أن يعينوه بالطعام ولكن هذه الذئاب البائسة كانت أشد منه جوعاً وإملاقاً وطوى .

وهذه الأبيات في تشبيه نفسه بالذئاب الجائعة يصدق عليه وعلى إخوانه الصعاليك الذين يلاقون الويلات في الحصول على لقمة العيش التي لا تتأتى الا بكد وجهد وكل بلاء .

٢٩ - مهلهلة شيب الوجوه كأنها ... قداح بكفي ياسر تتقلقل
٣٠ - أو الخشرم المبعوث حثحث دبره ... محابيض رداهن سام معسل
٣١ - مهرتة فوه كأن شدوقها ... شقوق العصي كالحات وبسل
٣٢ - فضج وضجت بالبراح كأنها ... وإياه نوح فوق علياء ثكل
٣٣ - وأغضى وأغضت واتسى واتست به ... أرامل عزاها وعزته أرمل
٣٤ - شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت ... وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل
٣٥ - وفاء وفاءت بادرات وكلها ... على نكظ مما يكاتم مجمل

معاني الكلمات :

مهلهلة : دقيقة الجسم ، والشيب : جمع أشيب وشيباء اذا ابيض شعره ، والقداح : جمع قدح وهو السهم ، والياسر : الضارب بالقداح ، وتتقلقل : تتحرك ، والخشرم : رئيس النحل ، المبعوث : المنطلق ، وحثحث : حث وحض ، والدبر : جماعة النحل ، ومحا بيض : جمع محبض وهو عود ، ورداهن : حركهن . وسام : غالٍ ومرتفع ، ومعسل : الذي يخرج العسل من الخلايا ، والمهرتة : الواسعة ، والفوه :أفواه ، وشدوق :جمع شدق وهي جانب الفم ، والكالحات : جمع كالحة والكلوح تكشر في عبوس ، والسبل :المكروه في المنظر وهذا لا يكون الا في القتال ، وضج : غلب على أمره أو جزع ، والبراح : الأرض الواسعة ، ونوح : جمع نوحاء : نساء باكيات ، والعلياء : المكان المرتفع ، أغضى : أرخى الجفون ، واتسى : اهتدى به ، والأرامل : جمع أرمل وأرملة وهي المحتاج والمسكين ، ارعوى : كف عن الأذى ، فاء : رجع ، بادرات : مسرعات ، نكظ : العجلة أو شدة الجوع ، مجمل : متجمل .

والمعنى :

نظراً للعشرة الطويلة فيما بين الشنفري وبين الحيوانات المذكورة من الذئاب فإنه أجاد في وصفها هزالاً وضعفاً ونحولة فهو في وصفه منسجم مع نفسه انسجاماً حقيقياً واقعياً فيقول إن هذه الذئاب ضعيفة هزيلة ولكنها سريعة وهي تشبه رئيس النحل الذي يرعى خلاياه يميناً وشمالاً ولا يتركها دون عنايته خوفاً من هلاكها وهذه الذئاب مفتحة الأفواه وأشداقها واسعة وذلك من شدة الجوع وهذا يتفق مع حال الصعاليك الذين كانوا يؤثرون الموت على قبول صدقة من طعام أو زاد من أي متفضل ، وقد سارت هذه الذئاب صياحاً وجزعاً في الأرض الواسعة بحثاً عن طعام ، ولكن ليس هناك طعام أمامها الا العويل كالنساء اللاتي فقدن آباءهن أو أبناءهن ثم لجأوا أخيراً الى حيلة نفسية علها تجدي وتنفع وهي المشاركة في البلاء وتسلية بعضهم بعضاً والمثل يقول (إن المصائب يجمعن المصابينا) وبعد مر الشكوى احتكموا الى أمر لا مفر من اللجوء إليه هو الصبر على المكاره وذلك بعد رجوعها بكل خيبة ومرارة . ونلاحظ على هذه الأبيات أنها صورة منتزعة من البيئة من حيث تصوير حال الذئاب جوعاً وصبراً على الجوع وعلى لذعات الهلاك المحقق ولا شك أن هذه

الأبيات تحكي لنا حال الصعاليك والذين كانوا صورة أصيلة لهذه الحيوانات الصحراوية .

٣٦ ـ وتشرب أسآرى القطا الكدر بعدما	سرت قربا أحشاؤها تتصلصل
٣٧ ـ هممت وهمت وابتدرنا وأسدلت	وشمر مني فارط متمهل
٣٨ ـ فوليت عنها وهي تكبو لعقره	يباشره منها ذقون وحوصل
٣٩ ـ كأن وغاها حجرتيه وحوله	أضاميم من سفلى القبائل نزل
٤٠ ـ توافين من شتى إليه فضمها	كما ضم أذواد الأصاريم منهل
٤١ ـ فعبت غشاشاً ثم مرت كأنها	مع الصبح ركب من احاظة مجفل

معاني الكلمات :

الاسآرى: جمع سؤر وهو بقية الماء ، والقطا : أسرع الطير وروداً للماء ، وسرى : سار في الليل ، وقرباً : قاصدة الماء ، وتتصلصل : تصوت ، هم : عزم ، ابتدرنا : تسابقنا ، وأسدلت : تركت جناحها مرخياً من الاعياء ، وشمر : نشط ، والفارط : المتقدم ، ولى : ذهب ، تكبو : تتساقط ، والعقر : مقام الساقي من الحوض ، ذقون : جمع ذقن ، الوغى : الصوت ، وحجرتيه : طرفيه أو جانبيه ، وأضاميم : جمع إضامة ، وسفلى : القبائل الذين لا يتقدمون بل يتأخرون ، ونزل : جمع نازل ، توافين : جئن على ميعاد ، وشتى : سبل متعددة ، العب : شرب الماء بكثرة دون تقطع ، وغشاشاً : بغلة ، وأحاظه : اسم قبيلة من اليمن ، ومجفل : مسرع .

المعنى :

يتجه الشنفري اتجاهاً جديداً وينحو منحى مغايراً لما سبق فهو يصف نفسه بالسرعة الفائقة في العدو ويشبه نفسه بالقطا أسرع الطير وروداً للماء ، وقد عقد مقارنة بينه وبين القطا وقد فاقها جرياً وعدواً ، حتى وصل الماء قبلها ، وشرب الماء قبلها وجاءت متأخرة عنه وعند حضورها للماء أحدثت أصواتاً وجلبة من أثر التزاحم على الماء وقد حضرت هذه الاسراب جماعات وأفراداً ، واصطفت على الماء لتشرب منه وقد عبت من الماء عباً ، ولكن هذا الماء كان قليلاً لكثرة هذه الطيور أو أنها شربت على عجل خوفاً من بزوغ النهار . ونلاحظ على هذه الأبيات والتي تحدث فيها عن سرعته وعدوه أنه اختار طائراً معروفاً في العدو وهذه صورة منتزعة من البيئة من

حيث شره ورغبة هذه الطيور في الماء أو من حيث بحثها عن الماء كما بحث الشنفري عن الماء ظامئاً .

٤٢ ـ وآلف وجـه الأرض عنـد افتراشها　　بأهـدأ تنبيه سناسـن قحل
٤٣ ـ وأعـدل منحوضـاً كأن فصوصـه　　كعـاب دحاهـا لاعـب فهـي مثل
٤٤ ـ فـإن تبتئس بالشنفـري أم قسطل　　لما اغتبطـت بالشنفـري قبـل أطول
٤٥ ـ طـريد جنـايات تياسرن لحمه　　عقيرتـه لأيهـا حُـمَّ أول
٤٦ ـ تبيت اذا ما نام يقظـى عيونها　　حثاثـاً الى مكروهـه تتغلغل

معاني الكلمات :

آلف : اعتاد على فعـل الشيء ، والأهـدأ : الثابـت الصلب ، تنبيه ، تبعـده وتجفاه ، وقحل : جمع قاحل وهو اليابس الجاف ، وأعدل : أضع ذراعي تحت رأسي ،ومنحوضاً: ذراعاً ، والفصوص : فواصل العظام ، والكعاب : جمع كعب ، ودحاها : بسطهاومثل :جمع ماثلة أي منتصبة ، الابتئاس : ومنه قوله تعالى (فلا تبتئس بما كانوا يعملون) وأم قسطل : كناية عن الحرب وسميت بذلك لأنها تثير الغبار ، والغبطة : الفرح والسرور وحسن الحـال . طريد : على وزن فعيل بمعنى مطرود مثل قتيل أي مقتول وجـريح أي مجـروح ، الجنـايات : الجرائـم ، تياسرن : تقاسمن ، والعقير : النفس ، والجثة للميت ، حم : قدروكتب،وأول ظرف وأصلها أول شيء ولكنه قطعها عن الإضافة فصارت أول مثل قبل،العيون :هنا بمعنى الرصد أو الجاسوس ، وحثاثاً : سراعاً . تتغلغل : تتوغل في الأعماق .

والمعنى :

يبرز الشنفري عنصراً أصيلاً من عناصر بسالته وبطولته وصبره وهي افتراشه الأرض والتحافه السماء وقد كان حرى به أن يكون شجاعاً من كانت هذه حياتـه وسبل عيشه ، وقد اتخذ من يده وسادة لرأسه فلم يجد من وسائل الترف والنعيم في المأكل والمشرب شيئاً يسره وكذلك لم يجد من النوم شيئاً يريحه وقد كان الشنفري أباً للحرب وسيداً لها أما الآن فإنه طريد مشرد بين حيوانات الفيافي وهو مطرود للجرائم التي ارتكبها ضد بني الانسان وهذه الجرائم لم تفارق خياله ووجدانه بل لازمته عيشاً وموتاً وحياة ونوماً وصحواً ، وهذا المنحى الفكري تأكيد لما قلناه من أنه قد أكثر

من القتل حتى مل القتل منه وهذه جرائمه تلاحقه وتلازمه وربما كان هذا اعترافاً بما ارتكبته يداه .

٤٧ ـ وإلف همــوم ما تزال تعوده عياداً كحمــى الربــع أو هي أثقل
٤٨ ـ اذا وردت أصدرتهــا ثم إنها تثــوب فتأتــي من تحيت ومــن عل
٤٩ ـ فإمــا تريننــي كابنــة الرمــل ضاحياً على رقبــة أحفــى ولا أتنعل
٥٠ ـ فإنــي لمولى الصبــر أجتــاب بزه على مثــل قلــب السِّمــع والحــزم أفعل

معاني الكلمات :

الإلف : المعاشر والمرابط والمؤالف ، تعوده : تزوره ، الورد : النزول الى أعماق الماء ، وتثوب : ترجع وتفيء ثانية للصواب ، ابنة الرمل : الحية ، ضاحياً : بارزاً ، والرقبة : الملاحظة والمشاهدة والرصد ومولى الصبر : أي وليه ، والبز : الثوب والسمع : ولد الذئب ، والحزم : اصلاح الأمر .

المعنى الاجمالي :

يتحدث هنا عن ملازمة الهموم له وأنه لا يفارقها وذلك لكثرة ما رأى من مصائب الدنيا ضنكاً وعذاباً وهي لا تتركه بل تزوره مثنى وثلاث ورباع وعلى الرغم من هزالي وضعف بنيتي فإني سيد الصبر وهنا تتمثل بطولة وعظمة الشنفري من أنه يلجأ الى فضيلة أخلاقية تريحه من هذه الهموم ويشبه قلبه كقلب الذئب ثباتاً ورباطة جاش .

٥١ ـ وأعــدم أحيانــاً وأغنــى وإنما ينــال الغنــى ذو البعــدة المتبذل
٥٢ ـ فــلا جزع لخلــة متكشف ولا مرح تحــت الغنــى أتخيل
٥٣ ـ ولا تزدهي الأجهــال حلمي ولا أري ســؤلاً بأعقــاب الأحــاديث أنمل

معاني الكلمات :

أعدم : أفتقر ، أحياناً : بعض الأوقات ، الغنى : الثراء والسعة ، ذو البعدة : المغامر ، المتبذل : من لا يحترم نفسه . الجزع : التوجع ، وهو ضد الصبر والخلة : بفتح الخاء الحاجة والفقر يقول الشاعر في معنى الخليل بمعنى الفقير .

وإن أتــاه خليل يومــه مسغبة يقــول لا غائــب مالي ولا حرم

والمتكشف : الذي لا يخفــي حاجتــه ، والتخيل : رؤيا حقيقية للنفس من

التكبر والخيلاء . تزدهي : تستفزني الجهالات ، وحلمي : بمعنى عقلي من الحلوم أو الأحلام يقول جرير :

ولو عرضت حلوم بني نمير على الميزان ما وزنت ذبابا

والأعقاب : المؤخرات من الحديث ، وأنمل : أي أنقل الحديث للافساد بين الآخرين .

والمعنى الاجمالي :

يقرر الشنفري أن الغنى والفقر أمران عارضان فأحياناً يكون غنياً وأحياناً أخرى يكون فقيراً ، ولكن الذي ينال الغنى المغامر الذي لا يكترث بالحياة ، ولكنه يعود فيقول إنه لا يجزع لفقره ولا يبديه للناس ثم تأخذه الكبرياء عندما يكون غنياً ثم إنه لا تستخفه جهالات الناس وليس من عادته الإفساد بين الناس بالوشاية والنميمة .

٥٤ ـ وليلة نحس يصطلي القوس ربها وأقطعه اللاتي بها يتنبل
٥٥ ـ دعست على بغش وغطش وصحبتي سعار وإرزيز ووجر وأفكل
٥٦ ـ فأيمت نسوانا وأيتمت إلدة وعدت كما أبدأت والليل أليل

معاني الكلمات :

الواو في وليلة واو رب تفيد التقليل ، نحس : ضد السعد وهي الليلة الشديدة القر ، يصطلي : يعاني البرد ، وربها : بمعنى صاحبها ، وأقطع : جمع قِطع وهو نصل القصير . والمتنبل : الذي يضع النبال ثم يعدها للرمي ، دعس : بمعنى داس ووطىء : والبغش ، المطر الخفيف والغطش : الظلام قال تعالى (وأغطش ليلها) والسعار : لهيب من لظى الجوع ، والإرزيز : هو البرد القارس ، والوجر : الخوف ، والأفكل : الرعدة ، أيم : المرأة قتل زوجها ، واليتيم : من فقد أباه أو أمه . والإلدة : هم الأولاد ، ابدأت : ابتدأت ، أليل : شديد الظلام .

والمعنى الاجمالي :

يبرز الشنفري هنا من هذه الأبيات كيف أنه عانى الأمرين من شدة البرد والجوع وأنه رغم ذلك صبر وتحمل ما لا يطاق وقد أحدث عنده الجوع والبرد ردة

عنيفة من اللوعة والأسى والحسرة والمرارة ولكنه التحف ثوب الجلد والصبر الذي لا حدود له ، ثم يعطف على ذكر أمر آخر وهو قتله لكثير من الناس الذين كانوا يقعون تحت يده إما من قاتلي أبيه أو من قاتلي والد زوجته قعسوس وترك النساء أيامى والاولاد أيتاماً ثم عاد الى نقطة البدء في مسيره الأول.

٥٧ ـ فأصبح عني بالغميصاء جالساً فريقان مسؤول وآخر يسأل
٥٨ ـ فقالوا لقد هرت بليل كلابنا فقلت أذئب عس أم عس فرعل
٥٩ ـ فلم يك إلانبأة ثم هومت فقلنا قطاة ريع أم ريع أجدل
٦٠ ـ فإن يك من جن لأبرح طارقاً وإن يك إنساً ماكها الانس يفعل

معاني الكلمات :

الغميصاء : اسم مكان في بلاد نجد ، والحلس : اسم نجد ، أتهم الرجل اذا أتى تهامة ، هرت الكلاب : صوتت دون النباح ، والعس : الدوران ليلاً ومنه العسس الذين يحافظون على حياة الناس وأمنهم ، والفرعل : ابن الضبع ، نبأة : صوت ، وهومت : نامت ، ريع : أفزع ورهب ، والأجدل : الصقر ، واللام في لأبرح واقعة في جواب قسم محذوف تقديره والله لأبرح .

والمعنى العام :

يتحدث الشنفري هنا عن هجومه على الغميصاء وهي من أرض نجد وقد أوقع الناس في حيرة إذ راحوا يسألون من هذا الذي هجم أهو ذئب أم ضبع وما دروا أن فاتك شجاع وهو الشنفري وبعدها سكنت الكلاب بعد الأصوات فظن أن الأمور هدأت وأن مصدر الصوت وهو الصقر أو الذئب قد ذهب .

حتى إن الناس قد اضطربوا في تفسيرهم عن سبب هذا الهجوم ، وإن كان من حق فإنه سيبقى طارقاً وإن كان إنسياً فالإنس لا تغامر ولا تفعل ذلك بتاتاً وهم باعتقادهم أنه من الحق قد يئسوا من النتيجة . .

٦١ ـ ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفاعيه من رمضائه تتململ
٦٢ ـ نصبت له وجهي ولاكن دونه ولا ستر الا الأتحمي المرعبل
٦٣ ـ وضاف اذا هبت له الريح طيرت لبائد عن أعطافه ما ترجل
٦٤ ـ بعيد بمس الدهن والفلي عهده له عبس عاف من الغسل محول

معاني الكلمات :

الشعرى : كوكب يدل طلوعه على شدة الحر ، اللواب : اللعاب ، أفاعيه : الحيات والثعابين ، الرمضاء : شدة الحر ، التململ : التحرك والاهتزاز ، نصب : عرض وأقام وجهه للحر واللهب ، والكن : الحاجب أو الفاصل وجمع كن أكنان ، والأتحمي : نوع من الثياب ، والمرعبل : المقطع الخفيف ، ضاف : سابغ طويل وهو شعره الملبد ، واللبائد : جمع لبيدة وهي جدائل الشعر وراء الكتف ، والأعطاف : جمع عطف وهو الجانب ، والمرحل : المسرح .

الفلي : التنقية من الأقذار ، والعبس : أقذار متجمدة كالبعر ، عاف : كثير ، والغسل : شيء يغسل به الرأس ، ومحول : مر عليه حول .

والمعنى :

يصنف الشنفري هنا صبره على الحر أيام الحر الشديد حتى إن حيات الرمضاء تتلوى من الرمضاء وقد صبر وعرض وجهه للشمس لا يحميه الا ثوب رقيق وشعر ملقى على أكتافه غير مسرح ولا مدهون وهذا الشعر قد مضى عليه حول دون أن يصيبه مس من دهن أو غسل وهذا دليل على عدم اهتمام الشنفري بجسمه وانشغاله بالغزو والفتك .

٦٥ ـ وخرق كظهر الترس قفر قطعته	بعاملتين ظهره ليس يعمل
٦٦ ـ فألحقت أولاه بأخراه موفياً	على قنة أقعى مراراً وأمثل
٦٧ ـ ترود الأراوي الصحم دوني كأنها	عذارى عليهن الملأ المذبل
٦٨ ـ ويركدن بالآصال حولي كأنني	من العصم أدفى ينتحي الكيح أعقل

معاني الكلمات :

الخرق : الأرض الواسعة ، الترس : ما يتوقى به في الميدان ، قفر : خالية من أي أحد ، والعاملتان : رجلاه اللتان سار عليهما (ظهره غير ملوك) ألحقت أولاه : تأخراه قطعته من أوله لآخره ، موفياً : مشرفاً ، وقنة الشيء أعلاه ، أو قمة الجبل ، والإقعاء : القعود على الركبتين كالكلب ، ترود تذهب وترجع والأراوي : جمع أروية وهي أنثى الوعول البرية ، والصحم : ما مال لونه إلى السواد أو الحمرة تضرب الى السواد ، والعذارى : جمع عذراء وهي البكر ، والملأ :

نوع من الثياب ، المذيل : الطويل الذيل ، يركدن : يثبتن ، والأصال : جمع أصيل وهو الوقت قبيل الغروب ، والعصم : جمع أعصم وهو الوعل الذي في ذراعيه أو في أحدهما بياض ، والأدفى : الوعل الطويل ،وينتحي :يقصد،والكيح : عرض الجبل ، والأعقل : الممتنع .

المعنى العام :

يستأنف الشنفري الصعلوك الشجاع الصلب العود الحديث تارة أخرى عن بأسه ومدى تحمله للمشقات وأن يقطع الأراضي الواسعة الخربة ثم إنه يطلعنا على مدى اطلاعه على كافة دروب الصحراء ، ثم إنه قطع هذه الدروب جيئة وذهاباً ، ثم يطل على أعلى الجبال وعندما يتعب من ذلك يقعد على رجليه ، ثم يبرز الشنفري ظاهرة غريبة لدى شعراء الجاهلية . وهي استئناسه بالحيوانات البرية وصداقتها له فهو يعرفها ويعاشرها وتعرفه جيداً ولا تنكر بل إنه اتخذ منها خليلاً ودوداً وهذا من طول ومداومة بقائه معها .

وبعد

فقد درسنا لامية الشنفري دراسة تحليلية تفسيرية معتمدين في الدرجة الأولى على شرح النصوص لغة وأدباً . وقد وجدت في هذه القصيدة ما يأتي :

أولاً : وجدنا بها دعوة صريحة من الشنفري للاغتراب والهجرة في ديار الحرية .

ثانياً : وجدنا بها الصبر المثالي على الجوع وإيثار الموت على أخذ الهبات والصدقات من الناس والاعتماد في وسائل العيش على ما تكسبه أيديهم تعباً .

ثالثاً : وجدنا بها الوصف الدقيق للحيوانات الصحراوية .

رابعاً : وجدنا بها حديثاً مستفيضاً عن الخشونة وأن هؤلاء الصعاليك قد ذاقوا الويلات والهلاك في سبيل الحصول على لقمة العيش .

خامساً : وجدنا بها حديثاً مفصلاً عن الفقر والغنى .

سادساً : وجدنا أنه قد استعان بالسلاح على تحقيق مآربه وأهدافه .

سابعاً : وجدنا بها حديثاً عن بطولته الفذة وقتله لكثير من الرجال .

ثامناً : وجدنا عنده حديثاً عن رجولته وصلابته وقسوته .

تاسعاً : وجدنا بها وصفاً لحالات الجوع التي تنتاب الجائع .

عاشراً : وجدنا الحكمة التي كانت تمثل نفسية هذا الصعلوك الشجاع .

وقد حق لهذه اللامية الخلود الأدبي في عالم الشعر والأمثال والحكم وقد صدق رسول الله ﷺ الذي وصفها بوصف قيم عظيم الأثر في عالم الأخلاق : « علموا أولادكم لامية العرب فإن فيها القناعة والشجاعة » .

تائيـــة الشـــنفري

إذا كانت لامية الشنفري قد اعتراها بعض الشك ونسبت في بعض الروايات الى خلف الأحمر ظلماً وزوراً وقد أبدينا رأينا في هذا الشك وأثبتنا بالحجة القاطعة والدليل الواضح أن هذه اللامية للشنفري حقيقةً فنياً وتاريخياً وأدبياً ولغوياً ورواية ودراسة ومقارنة .

والآن نحن أمام قصيدة لم يشبها شك ، ولم يطعن أحد من الرواة الثقات في صحة نسبتها للشنفري فهي للشنفري دماً وروحاً ونفساً ونصاً وقلباً وقالباً وقد رواها أئمة الأدب والرواية دون أن يتعرضوا للشك أو الطعن في صحتها من أولئك الرواة الذين رووها صاحب الأغاني ، والمفضل الضبي صاحب المفضليات . وقد تولى المفضل الضبي شرحها بالتفصيل لغة واعراباً واستشهاداً ثم لم ينس إعجابه بها في بيان الصفات الحميدة للمرأة المتغزل بها وكيف حلق الشنفري الشاعر الصعلوك الجاهلي في سماء العفة والشرف والصون والكرامة .

وباختيارنا لهذه التائية لا نكتم اعجابنا الشديد بملاحتها الجمالية وسماتها الفنية وبراعة ألفاظها وسحر معانيها وسمو أخلاقياتها ورفيع ايحاءاتها الكريمة والتي أبدت المرأة العربية بأنها امرأة محتشمة ومصونة العرض والأخلاق . وفي دراستنا لهذه التائية سوف نركز على هذه الصفات الأخلاقية التي انفرد بها الشنفري فالمعروف أن معظم شعراء الغزل في العصر الجاهلي كانوا يتغزلون في الجانب الحسي للمرأة من حيث وصف جمال الجسم واحوزار العيون ورشاقة القد وسواد الشعر وملاحة الأعضاء عموماً أما الشنفري صاحبنا فقد تناول الجانب الروحي سمواً وأخلاقاً ورفعة وحشمة ثم دخل الى اعمق اعماق المرأة إذ صور شرفها وكرمها وإيثارها وحفظها للعهد لزوجها ثم أبدع في تصوير حياتها بشكل عام .

التائية برواية المفضليات [1]

١ - ألا أمُّ عمروٍ اجمعت فاستقلت
وما ودعت جيرانها إذ تولتِ

٢ - وقد سبقتنا أمُّ عمرو بأمرها
وكانت بأعناق المطي أظلتِ

٣ - بعيني مَا أمست فباتت فأصبحت
فقضت أموراً فاستقلت فولت

٤ - فواكبداً على أميمة بعدما
طعمت فهبها نعمة العيش زلتِ

٥ - فيا جارتي وأنت غير مليمة
إذا ذكرت ولا سذات تقلتِ

٦ - لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها
إذا ما مشت ولا بذات تلفتِ

٧ - تبيت بعيد النوم تهدي غبوقها
لجارتها إذا الهدية قلتِ

٨ - تحل بمنجاة من اللوم بيتها
إذا ما بيوت بالمذمة حلتِ

٩ - كأن لها في الأرض نسياً تقصه
على أمها وإن تكلمك تبلتِ

١٠ - أميمه لا يخزى نثاها حليلها
اذا ذكر النسوان عفت وجلت

١١ - إذا هو أمسى آب قرة عينه
مآب السعيد لم يسل أين ظلتِ

١٢ - فدقت وجلت واسبكرت وأكملت
فلو جنَّ إنسان من الحسن جنتِ

---

(١) المفضليات ط بيروت عام : ١٩٢ م - مطبعة الآباء اليسوعيين

١٣ - فبتنا كأن البيت حجّر فوقنا
بريحانة ريحت عشاء وطلت

١٤ - بريحانة من بطن حلية نورت
لها أرج ما حولها غير مسنتِ

١٥ - وباضعة حمر القسي بعثتها
ومن يغز يغنم مرة ويشمتِ

١٦ - خرجنا من الوادي الذي بين مشعل
وبين الجبا هيهات أنشأت سربتي

١٧ - أمشي على الأرض التي لن تضرني
لأنكى قوماً أو أصادف حمتي

١٨ - أمشي على أين الغزاة وبعدها
يقربني منها رواحي وغدوتي

١٩ - وأم عيال قد شهدت تقوتهم
إذا أطعمتهم أو تحت وأقلتِ

٢٠ - تخاف علينا العيل إن هي أكثرت
ونحن جياع أي آلٍ تالتِ

٢١ - مصعلكة لا يقصر الستر دونها
ولا ترتجي للبيت إن لم تبيتِ

٢٢ - لها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً
٢٣ - وتأتي العدى بارزاً نصف ساقها
تجول كعير العانةِ المتلفتِ
إذا آنست أولى العدى اقشعرتِ

٢٤ - اذا فزعوا طارت بأبيض صارم
ورامت بما في جفرها ثم سلت

٢٥ - حسام كلون الملح صاف حديده
جراز كأقطاع الغدير المنعتِ

٢٦ - تراها كأذناب الحسيل صوادراً
وقد نهلت من الدماء وعلت

٢٧ ـ قتلنا قتيلاً مهدياً بملبد
جمار منى وسط الحجيج المصوت

٢٨ ـ جزينا سلامان بن مفرج قرضها
بما قدمت أيديهم وأزلتِ

٢٩ ـ وهنىء بي قوم وما إن هنأتهم
وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي

٣٠ ـ شفينا بعبد الله بعض غليلنا
وعوف لدى المعدي أو ان استهلتِ

٣١ ـ اذا ما أتتني ميتتي لم أبالها
ولم تذرِ خالاتي الدموع وعمتي

٣٢ ـ ألا لا تعدني إن تشكيت خلتي
شفاني بأعلى ذي البريقين عدوتي

٣٣ ـ وإني لحلوٌ إن أريدت حلاوتي
ومرٌّ إذا نفس العزوف استمرتِ

٣٤ ـ أبيٌّ لما آبى سريع مباءتي
إلى كل نفس تنتحي في مسرتي

تحليل القصيدة وشرحها

يمكن أن نلاحظ الأفكار الرئيسية التي تدور حولها هذه القصيدة وإبرازها في العناصر الآتية :

١ ـ حديث عن الاغتراب والرحيل عن زوجته من ١ ـ ٣
٢ ـ ندم على فراق الحبيبة في بيت ٤
٣ ـ حديث شامل عن عفة وحشمة وسعادته بزوجته من ٥ ـ ١١
٤ ـ وصف حسي نادر لهذه المحبوبة في بيت رقم ١٢
٥ ـ وصف ريحها وطيبها وعذوبة حديثها معه من ١٣ ـ ١٤
٦ ـ وصف قيادته لرفاقه الصعاليك في غزوة معهم من ١٥ ـ ١٨
٧ ـ وصف حرص خازن الطعام « أم العيال » من ١٣ ـ ٢١
٨ ـ وصف السلاح بكافة أنواعه من ٢٢ ـ ٢٦
٩ ـ حديث عن ثأره من قاتل أبيه من ٢٧ ـ ٣٠
١٠ ـ وصف لبيان جرأته وعدم مبالاته بالموت ٣١ ـ ٣٢
١١ ـ حكمة رائعة تختم بها الأبيات من ٣١ ـ ٣٢

أولاً ـ حديث عن الاغتراب والارتحال (١ ـ ٣) :

قال الشنفري[1] :

١ ـ ألا أمُّ عمرو أجمعت فاستقلت ... وما ودعت جيرانها إذ تولت
٢ ـ وقد سبقتنا أمُّ عمرو بأمرها ... وكانت بأعناق المطي أظلت
٣ ـ بعيني ما أمست فباتت فأصبحت ... فقضت أموراً فاستقلت فولت

معاني الكلمات :

١ ـ أجمع على الأمر عزم عليه ، وهو من قوله تعالى (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) وفيه يقول الشاعر :

يا ليت شعري والمنى لا تنفع ... هل اغدون يوماً وأمري مجمع

واستقلت بمعنى غادرت المكان ورحلت ،وتولت: ذهبت

٢ ـ سبقتنا : أي أنها استأثرت بالفضل دوننا ولم تشاركنا في الرأي والمراد بقوله وكانت بأعناق المطي أظلت حي أن قرارها كان فجائياً والمطي هي الابل .

٣ ـ قضت :أنجزت وأنهت،أمور :حاجات وفي رواية قضت خطوباً أي أموراً عظيمة من الخطب الأمر الخطير .

والمعنى

إن الشنفري يبدي أسفه وحزنه لفعل أم عمرو التي فارقته دون أن تعلمه بالأمر وقد كان قرارها ذاك من جانبها وحدها مما أفزع الشنفري حيث صارت بعد ذلك بعيدة عنه وهو هنا مكتئب اشد الاكتئاب لارتحالها واغترابها إذ أنها فتنت قلبه بخيالها الذي فارقه وحيداً .

ثانياً ـ ندم على الفراق وحزن من الأعماق :

٤ ـ فوا كبداً على أميمة بعدما ... طعمت فيها نعمة العيش زلت

---

(١) المفضليات ص ١٩٤ .

معاني الكلمات :

يروى بدل فوا كبداً فوا أسفاً أو فوا ندماً ويروى بدل نعمة العيش نعمة الدهر ، فوا كبداً تحسر وندم وفجع من ألم الفراق ورواية فوا أسفاً بمعنى فوا حزناً على حرارة الفراق ونعمة العيش السعادة الزوجية وهناءة الحياة بأدق معانيها .

والمعنى

إن مشاعر الشنفري قد تألمت من فراق زوجته المحبوبة حيث تركته وحيداً طريداً ولكنه يحتسبها نعمة قد سلبت قضاء وقدراً وهو هنا يسلم بالأقدار التي تجري على غير ما يشتهي ويرغب .

ثالثاً ـ حديث عن عفة وحشمة وكرم زوجته (١٥ ـ ١١)

٥ ـ فيا جارتي وأنت غير مليمة	إذ ذكرت ولا بذات تقلتِ
٦ ـ لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها	اذا ما مشت ولا بذاتِ تلفت
٧ ـ تبيت بعيد النوم تهدي غبوقها	لجارتها إذا الهدية قلتِ
٨ ـ تحل بمنحاة من اللوم بيتها	إذا ما بيوت بالمذمة حلت
٩ ـ كأن لها في الأرض نسياً تقصه	على أمها وإن تكلمك تبلت
١٠ ـ أميمة لا يخزي نثاها حليلها	اذا ذكر النسوان عفت وجلت
١١ ـ اذا هو أمسى آب قرة عينه	مآب السعيد لم يسل أين ظلتِ

معاني الكلمات

٥ ـ غير مليمة ليس في أفعالها ما تلام عليه من القبح والسوء والشر .

٦ ـ تقلت كراهية في الفعل (٧) قناع خمار ، تلفت :النظر بتعمد لأنه من فعل أهل الريبة ، وقد قال الأصمعي قد تلقي المرأة خمارها لحسنها وهي على عفة وأنشد قول الشماخ :

أطارت من الحسن الرداء المحبرا

وقال أبو النجم :

من كل غراء سقوط البرقع   عجزاء لم تحفظ ولم تضيع

٧ ـ الغبوق : طعام المساء ، والصبوح : طعام الصباح ، تهدي : تعطي وتؤثر جارتها على نفسها في الزاد والطعام ولا يكون هذا إلا وقت الجدب والقحط والحاجة .

٨ ـ المنجاة :الارتفاع أي هي في مكان عالٍ من اللوم ويروى اللؤم فهي نقية العرض شريفة النفس عالية القدر .

٩ ـ تقصه : تبحث عنه وأمها قصدها والنسي : الفقد وتبلت : تتكلم بايجاز ولا تطيل خوفاً من الحرج .

١٠ ـ النثا : الحديث والحليل : الزوج عفت : ترفعت وجلت : عظمت وقدرت في العين

١١ ـ آب :رجع قرة عينه :كناية عن سعادته بها وسعادتها به .

والمعنى

تمثل هذه الأبيات محوراً أصيلاً في التعبير عن أخلاقية المرأة المثالية فهي في نظر الشنفري الصعلوك مثال له ظل واسع على الأرض وتعد هذه الأبيات بما لها من واقعية جمالية ومن عمق فكري صائب وبراعة خياله وسمو وجداني وجمال بياني وسحر في نسق الألفاظ تعد هذه الأبيات من أدق وأجمل وأرق ما قيل في خفر وحشمة النساء .
فإن الزوجة المحبوبة المخاطبة هنا زوجة كريمة القدر ، شريفة الخلق ، سامية النفس لا تلام على فعل من الأفعال لأنها ملتزمة خلقياً وفكرياً بخط مملوء بالعفة والترفع عن كل ما يؤذي وهي مثال للمرأة التي تحافظ على جسمها وجمالها . وسر مظاهر الفتنة فيها يرجع أساساً إلى استعمال الخمار الذي يقطع دابر النظرات الزائفة والذي يثير مكامن الشهوات فإذا ما مشت فإنها تمشي بأدب جم وعقل متزن وقلب نظيف وهي كريمة وذات سماحة وأريحية فهي تؤثر جارتها المحتاجة وقت الحاجة بزادها ولله درها فإن هذه الأخلاق أخلاق النساء العفيفات الشريفات المصونات الحافظات للعهد والود وهي متأثرة بوجه عام بقول زعيم الصعاليك عروة بن الورد :

أقسم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

فإن هذا التفكير قد سار في مجاري ودروب تفكير الصعاليك قاطبة في الحث

على الكرم والعدل الاجتماعي حتى امتد هذا التفكير بالكرم إلى نسائهم الصعلوكات . وهذه الزوجة التي هام الشنفري بأخلاقها ليست من النساء الساقطات بل إنها من ذوي الرفعة والشأن العظيم فهي في مكان شامخ لا تصله الشائعات أو ما يدنس العرض والشرف وهي عند سيرها بأدب غير ملتفتة يميناً أو يساراً ولا تتكلم إلا على قدر السؤال بإيجاز شديد جداً . وحديثها للناس ومع الآخرين لا يسوء زوجها وهي تعامل زوجها بكل تقدير واحترام أثناء رجوعه لمنزله وعند عودته للبيت فما يجد عندها إلا السعادة والهناء والاستقرار والسكينة وهكذا ينبغي أن تكون أدباً وعفة وحشمة وسلوكاً وسيرة .

وقد أعجب الأصمعي راوية العرب بهذه الأبيات وقال عنها : هذه الأبيات أحسن ما قيل في خفر النساء وعفتهن وأبيات أبي قيس بن الأسلت :

ويكرمها جاراتها فيزرنها ... وتعتل عن إيتانهن فتعذر
وليس بها أن تستهين بجارة ... ولكنها من ذاك تحيا وتحصر
وإن هي لم تبرز لهن أتينها ... نواعم بيض مشيهن التأطر

رابعاً : وصف حسي لا نظير له (١٢)

١٢ ـ فدقت وجلت واسبكرت وأكملت ... فلو جن انسان من الحسن جنت

معاني الكلمات :

دقت : أي دقت محاسنها وجلت في خلقها ، واسبكرت : طالت وامتدت ومنه قول امرىء القيس (اذا ما اسبكرت بين درع ومجول) أي تتمت فهي كاملة في أعضاء جسمها جمالاً وبهاء وتناسقاً وليس هناك ما يشينها .

والمعنى :

هذا البيت الجميل معنىً البديع وصفاً الرائع تصوراً يدور حول وصف جمال الجسم للمرأة ويبدي الشنفري مظاهر الجمال التي كانت عليه الحبيبة وقد سبق أن رأينا أن الشنفري قد تغنى بجمال المرأة الروحي والأدبي من حيث سماحتها وكرمها ورفعة قدرها فإنه هنا يتغنى بالجمال الحسي والتي ترغب العين في رؤياه ، ولو كان

اكتمال الجمال داعياً إلى الجنون لجنت هذه السيدة المصونة الجليلة الجميلة البهية النقية العرض .

خامساً : وصف نسائم ريحها وطيب نفسها

١٣ ـ فبتنا كأن البيت حُجِّر فوقنا   بريحانة ريحت عشاء وطلت
١٤ ـ بريحانة من بطن حلية نورت   لها أرج ما حولها غير مسنت

معاني الكلمات :

١٣ ـ حجر فوقنا بريحانة كناية عن طيب ريحها ورقة نفسها وريحت أصابتها ريح فجاءت بالنسيم العليل وطلت أصابها الطل وهو الندى

١٤ ـ بطن حلية : هو نبات الحزن وهو أطيب من غيره وذلك كقول الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة   خضراء جاد عليها مسبل هطل

نورت : خرج نورها أو صار لها نوار وهو الزهر .

والأرج توهج الريح وانتشار شذاها في كل جانب والمسنت : المجدب .

والمعنى :

عطف الشنفري على طيب نفس الحبيبة إذ شبهها بأطيب الروائح وأرق الأنسام وهي تفوح شذى وعطراً في كل مكان مجاور وهي في هذه الرائحة الطيبة لا شبيه لها من حيث نفاذ العطر العظيم الرائحة وهذه الأوصاف حسية قد كساها الشنفري ببيانه البالغ الدقة والروعة بحيث لا يجاريها وصف من أوصاف المرأة المحتشمة الجليلة الفاضلة .

٦ ـ وصف غزوة مع رفاقه الصعاليك (١٥ ـ ١٨)

١٥ ـ وباضعةٍ حمر القسي بعثتها   ومن يغز يغنم مرة ويشمت
١٦ ـ خرجنا من الوادي الذي بين مشعل   وبين الجبا هيهات أنشأت سربتي
١٧ ـ أمشي على الأرض التي لن تضرني   لأنكى قوماً أو أصادف حمتي
١٨ ـ أمشي على أين الغزاة وبعدها   يقربني منها رواحي وغدوتي

معاني الكلمات

١٥-الباضعة القاطعة بمعنى قوم غزاة ، بعثتها : غزوت بهم ، حمر القسي :أي غزوا مرة بعد مرة فاحمرت قسيهم للمطر والشمس ويشمت: يخيب ولا يغنم ويروى بدل باضعة ناصعة أي الذين قد يفسعوا أي برزوا .

١٦- السرية : الجماعة وأنشأت : أي أظهرت ، الجبا ومشعل مكانان .

١٧ - لأنكى قوماً : أي لأمعن فيهم قتلاً وجراحاً بهم وحم الأمر : اذا قدر ولن تضرني أي لا أخاف أحداً ، أصادف : أجد وأواجه وحمتي : منيتي .

١٨ - أين الغزاة : أي تعب الغزاة وأمشي أكثر من المشي على رجلي ورواحي هو الذهاب صباحاً وغدوتي هو رجوعي مساءً .

والمعنى الاجمالي

يتجه الشنفري الآن إلى الحديث عن جانب آخر من جوانب التائية إذ أنه يبرز الجانب الهجومي له وكيف أنه كان قائداً لسرية من سرايا الصعاليك وكان سلاحهم في هذه الغزوة الصعلوكية القسي الحادة ثم جاء في ثنايا هذه الأبيات الحماسية حكمة فريدة رائعة خالدة إذ أن الغازي بين أمرين إما غنم وإما غرم أو قل بين نصر وهزيمة . ثم يقص علينا بأسلوب فيه شيء من التفصيل والوضوح . إذ يزودنا ويطلعنا على مكان الغزو وأنه كان بين الجبا ومشعل بعد خروجهم من الوادي وقد هيأ رفاقه الصعاليك المدربين والمعدين إعداداً خاصاً للغزوات في هذا المكان وهم يسيرون على أرض لا يخافون فيها أحداً حتى يشخن من جراح الأعداء قتلاً وفتكاً وسلباً واستيلاء على مغانم كثيرة . وقد استعان هؤلاء الصعاليك في سيرهم بأرجلهم التي تعودت على المسير في وهج الشمس وعلى أرض كثيرة الوديان والجبال والهضاب .

٧ ـ وصف اقتصاد أم عيالهم عليهم (١٩ - ٢٠)

١٩ - وأمّ عيال قد شهدت تقوتهم اذا أطعمتهمُ أو تحت وأقلتِ

٢٠ - تخاف علينا العيل إن هي اكثرت ونحن جياع أي آل تألتِ

معاني الكلمات

١٩ ـ أم عيال: كناية عن ربة البيت التي تتولى الطعام وأم العيال هنا هو تأبط شراً الذي كان قائماً بالطعام في غزوتهم تلك . ويروى بدل أو تحت احترت بمعنى قللت والقصد إذا أنفقت عليهم قللت خوف هلاكهم عند نفاذ الزاد .

٢٠ ـ العيل والعيلة : الفقر والحاجة من عال اذا افتقر وقوله أي آل تألت : بمعنى أي سياسة ساستنا في تصرفها ويقال ألته أؤولة أولاً اذا سسته وفي رواية بدل العيل تخاف علينا الهزل وهو الفقر . ومن قول لبيد .

بصبوح صافية وجذب كرينة بموتر تأتاله إبهامها

والمعنى

يصف الشنفري اقتصاد تأبط شراً وكيف أنه يقتر عليهم في غزوتهم تلك خوف الفقر والهلاك لأنهم كانوا في مناطق نائية منقطعة وقد كانت في سياستها تلك قد ارتكبت شططا وجناية .

ثامناً : وصف سلاح الصعاليك وشجاعتهم (٢١ ـ ٢٦)

٢١ ـ مصعلكةٌ لا يقصر الستر دونها ... ولا ترتجي للبيت إن لم تبيت

٢٢ ـ لها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً ... إذا آنست أولى العدى اقشعرت

٢٣ ـ وتأتي العدى بارزاً نصفُ ساقها ... تجول كعير العانة المتلفت

٢٤ ـ إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ... وراحت بما في جفرها ثم سلتِ

٢٥ ـ حسام كلون الملح صاف حديده ... جراز كأقطاع الغدير المنعتِ

٢٦ ـ تراها كأذناب الحسيل صوادراً ... وقد نهلت من الدماء وعلتِ

معاني الكلمات :

٢١ ـ مصعلكة: صاحبة صعاليك ، لا ترتجي للبيت لا ترتجي أن تكون مقيمة لا يقصر الستر دونها: لا تغطي أمرها .

٢٢ ـ السيحف : النصل المذلق الحاد الوفضة : الجعبة ، وجمعها وفاض آنست : احست ، العدى : القوم من الرجالة ، اقشعرت : أي تهيأت للقتال والعدى جمع لا واحد له .

٢٣ - بارزاً نصف ساقها : أي مشمرة قال الشاعر :

وكنت إذا جاري دعا لمضوفةٍ أشمر حتى ينصف الساق مئزري

يجول كعير العانة المتلفت قال الأصمعي الحمار أغير ما يكون على أتنه يطرد الحمير عنها والمضوفة الذي يضاف .

٢٤ - الأبيض : السيف الصارم القاطع والجفير : الكنانة والمقصود هنا يرمي بما في كنانته ويحارب بسيفه .

٢٥ ، ٢٦ - الحسيل : جمع حسيلة وهي أولاد البقر وقد شبه السيوف هنا بأولاد البقر والنهل والعلل هنا للسيوف .

والمعنى العام

يصف الشنفري أصحابه الصعاليك بأنهم شجعان ، وأنهم قد أخذوا استعدادهم لملاقاة أعدائهم وهم شاكو السلاح من رماح وقسي وسيوف وهم يجولون في ميدان القتال كالحمار الذي يطرد الأتن عن أنثاه في كل اتجاه وإذا داهمهم خطر فإنهم يسلون السيوف من أغمادها وهذه السيوف بيضاء لامعة حادة وهي تتحرك كأذناب الحسيل يمنة ويسرةً .

وهذا الجانب الذي يريد الشنفري إبرازه وإظهاره يؤكد فيه عزمه على الفتك واستعداده لمواجهة الطوارىء لأن هؤلاء الصعاليك يحملون أرواحهم على أكفهم .

تاسعاً : الثأر والانتقام من قاتل أبيه (٢٧ - ٣٠)

٢٧ - قتلنا قتيلاً مهدياً بملبد جمار منى وسط الحجيج المصوتِ

٢٨ - جزينا سلامان بن مفرج قرضها بما قدمت أيديهم وأزلتِ

٢٩ - وهنىء بي قوم وما إن هنأتهم وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي

٣٠ - شفينا بعبد الله بعض غليلنا وعوف لدى المعدي أوان استهلت

معاني الكلمات

٢٧ - مهدياً : محرماً ، المصوت : الملبي ، وسط الحجيج : بين الحجيج عند الجمار قرب الجمار .

٢٨ ـ سلامان بن مفرج : قوم الشنفري ، جنت أزلت وأخطأت وانحرفت عن الصواب .

٢٩ ـ هنىء بي قوم : أخذني القوم ولم ينتفعوا بي ، منبتي : أصلي .

٣٠ ـ الغليل : حرارة العطش للقتل : المعدى : موضع القتال ، الأوان : الوقت ، استهلت : ارتفعت الأصوات .

والمعنى :

لقد انتقمت من قاتلي أبي وشفيت غليل نفسي من أولئك الذين جنوا جناية القتل وحرموني من حنان والدي وما فعلت ذلك إلا انتقاماً منهم لاعتدائهم على والدي وعلى الباغي تدور الدوائر وقد قيل في الأمثال (البادىء أظلم) .

عاشراً : عدم المبالاة بالموت (٣١ ـ ٣٢)

٣١ ـ إذا أتتني ميتتي لم أبالها ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي
٣٢ ـ الا لا تعدني إن تشكيت خلتي شفاني بأعلى ذي البريقين عدوتي

معاني الكلمات :

٣١ ـ ميتتي : منيتي ، لم أبالها : دليل على جرأته وعدم مبالاته بالموت وقد بلغت في الجرائم والقتل حداً لا يصدق قال الشاعر في هذا المعنى :

ولقد ثارت دماءنا من واتر فاليوم إن زار المنون قد أكتفي

٣٢ ـ لا تعدني : لا تزرني من العيادة ، والخلة : الصداقة والصديق والخليل ودليل الخليل قول الشاعر :

الا أبلغا خلتي جابراً بأن خليلك لم يقتل

ويكون الخليل بمعنى الفقير قال الشاعر :

وإن أتاه خليل يوم مسغبة يقول لا غائب مالي ولا حرم

والمعنى العام :

لا يبدي الشنفري اهتماماً ولا خوفاً ولا وجلاً ، اذا ما جاءته المنية لأنه قد ارتكب من الجنايات والجرائم في الفتك ما جعله يتقبل الموت بترحاب وبشر ولو كان ذلك أخذاً لثأر أو راحة لنفسه من مشقات الحياة ، ثم يطلب من صديقه الزائر أن لا يزوره لأنه لا يجد ما يقدمه له من التحية والإكرام .

والشنفري لا قرابة له بتاتا من الخالات والعمات حتى يحزنَّ عليه فهو وحيد من القرابة والأرحام ، وما عليه لو مات ما دام حاله هكذا .

حادي عشر : الحكمة الفريدة :

٣٣- وإني لحلوٌ إن أُريدت حلاوتي ومرٌ إذا نفسُ العزوف استمرتِ
٣٤- أبي لما آبي سريع مباءتي إلى كل نفس تنتحي في مسرتي

معاني الكلمات :

٣٣- حلو : سهل وجميل الأخلاق لمن عفا عني وسامحني وأنا صعب ومر عند الخلاف لمن استلذ مرارة المعاملة واستمرت استفعلت من المرارة والعزوف المنصرف عن الشيء رغبةً عنه مخافة الأذى .

٣٤ : أبي : أنوف والمباءة : الرجوع ، تنتحي : تعتمد وروى سريع مفيئتي من فاء إذا رجع .

والمعنى العام لحكمته :

لم ينس الشنفري أن يختم هذه التائية الجميلة البديعة النسج الرفيعة القدر الجليلة في معناها الكريمة في سمو خيالها السامقة في حلاوة ألفاظها أقول لم ينس أن ينسج حولها حكمته الخالدة العذبة في أنه حلو لمن يريد حلاوته ومر لمن يريد استذلاله واستعباده وهذا شبيه بقول زهير :

ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وقول الآخر :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي صولة المستأسد الضاري

ثم إنه يقرن هذه الحلاوة للأصدقاء والعداوة للأعداء بنفسه الأبية الشامخة وهو يقبل من كل نفس الاعتذار لأنه يعتقد أن الخطأ لا بد منه من الناس أصدقاء وأعداء ما دام هذا المعتذر قد اعترف بالخطأ وثاب الى الصواب .

وبعد . . .

فاننا قد درسنا هذه القصيدة الجميلة للشنفري وقد وجدناها تشتمل على المحاور الفكرية الآتية :

أولاً :

في مجال الاغتراب تحدث الشنفري حديثاً صادقاً نابعاً من إحساسه في تصوير سفر زوجته وهو لا يدري عن ذلك مما سبب له الحسرة والألم والدموع .

ثانياً :

هناك ندم من كل أعماقه على فراق هذه المحبوبة ـ سلواه ومهوى فؤاده ومسرح خياله ومحط آماله وندمه نابع من العالم الداخلي لذاتيته . بعد معاناة المرارة والأسى .

ثالثاً :

تناول بأسلوبه القوي العنيف تارة الرقيق اللين تارة أخرى وصف تلك المرأة المثالية فكراً الواقعية مثالاً من وصف حشمتها وعفتها وكرم أخلاقها وسماحة نفسها ثم انفاقها على ذوي الحاجة والمساكين والجارات الفقيرات وهذا أصدق ما عبر عنه لأنه كان من أولئك الصعاليك الذين يرون أنه لهم حقاً في مال الأغنياء البخلاء فإذا هم لم ينالوه بالحسنى نالوه بالفتك والسلب وذلك لأن المعركة هنا في نظرهم معركة حياة أو موت أو قل معركة بقاء أو فناء .

رابعاً :

تناول في بيت واحد من هذه التائية وصفاً حسياً تمثلت فيه عناصر الجمال المحسوس المجسم من احورار العيون ورشاقة الخصر وجلال المنظر ، وفخامة

الصورة وهذا ما كنا نعهده عند شعراء الجاهلية ومن يقرأ ويطلع على دواوين امرىء القيس والأعشى وطرفة يجد كثيراً من التشبيهات الحسية المجسمة .

خامساً :

من عناصر الجمال عند المرأة التي وصفها الشنفري فأجاد تصويرها طيب رائحة الفم الذي تعبق منه الروائح الندية والأريج المنتشر في كل مكان وهذا له شبيه في شعر الجاهليين عموماً .

سادساً :

تناول الشنفري بالتفصيل وصف حال رفاقه الصعاليك وصفاً مستوحى من بيئته وصادراً من محيطه الصعلوكي بحيث لا نجد انفصاماً بين هذه الأوصاف وبين نفسه فقد كان هذا الشنفري شاعراً صعلوكاً عداءً شجاعاً ثم كان فاتكاً قد قتل من بني سلامان مئة من الرجال لأنهم قتلوا أباه أو لأنهم استعبدوه أو لأنهم قتلوا والد زوجته قعسوس الذي خرج عن أعراف القبيلة وزوج الشنفري الرجل الغريب عن القبيلة وقد نكل الشنفري بهم تنكيلاً مريعاً وتفنن في وسائل القتل .

سابعاً :

تناول في ثنايا قصيدته وصفاً كاملاً لحال تأبط شراً وأنه كان مقتصداً في إنفاقه عليهم وتوزيع الطعام بقدر وهذا أمر لازم في بيئة كبيئة الصعاليك الذين كانوا محرومين في أغلب أوقاتهم من الزاد ولأنهم عانوا شظف العيش فقد عاشوا في صحراء قاحلة طبيعة ثم خرجوا على تقاليد قبائلهم فكان منهم المطرود والمخلوع والجاني فليس أمامهم إلا القتال والسلب والنهب والفتك للحصول على لقمة العيش حتى لا يهلكوا جوعاً .

ثامناً :

تناول الشنفري وصف السلاح وصفاً آتياً من استخدامهم إياه في القتال من قوس وسيف ورمح ودرع وخيول . ولا نكاد نجد المبالغة المعروفة لدى شعراء الجاهلية فكانت أشعاره عندئذٍ صورة طبق الأصل عن الواقع الملموس

عيشاً وممارسة ومعتركاً ومعاناة .

تاسعاً :

ونجد عند الشنفري حديثاً عن الثأر من قاتلي أبيه وكيف أنه بالغ مبالغة رهيبة في القتل والانتقام من أولئك الذين حرموه من حنان والديه وبره حتى إن عدوه قد رصدوا له الأرصاد حتى وقع في أيديهم ونكلوا به كما كان يفعل بهم من قبل

عاشراً :

ونجد عند هذا الشنفري ما لا نجده عند أي من الشعراء الجاهليين من حيث عدم المبالاة بالموت أو قل الفدائية الجريئة فالمعركة في تصور الشنفري خصوصاً والصعاليك عموماً معركة حياة أو موت إذ تتجلى هنا كل ضروب الشجاعة والبأس والبسالة وهذا ما لا نلاحظه عند الشعراء الآخرين من الجاهليين وربما كان هذا راجعاً للظروف الصعلوكية التي حكمت سيرة الشنفري

حادي عشر :

لم ينس الشنفري أن يزودنا بطريف حكمته وبديع تفكيره وجميل تجاربه وكريم ممارسته للحياة بكل أصنافها وضروبها عيشاً وعزةً وكرامة وذلاً وفقراً وغنى وهذا ما سار عليه شعراء الجاهلية من أنهم كانوا يختتمون قصائدهم بالحكمة ولكن حكمة الشنفري هنا كانت رائدة في مضمونها ومثالية في سلوكيتها وواقعية في صورها ورغم التباعد الزمني بيننا وبين الشنفري فإننا نجد اللذة الفكرية والمتعة الروحية لتذوقها والارتياح لسماعها ولا عجب فالشنفري ابن الصحراء الأبي الذي صقلته بأصفى ينابيعها صقلته بالإباء ورفعته إلى علياء الشجاعة حقيقة نابعة من صفاء الصحراء وإن كان من شاعر تنطبق عليه صفات الشجاعة في الجاهلية بحيث لا نجد تبايناً في الصورة والخيال فالشنفري الذي أبدع في دنيا الشعر بحماسته ونقي فطرته في عالم الناس والعادات الاجتماعية بكل حلاوتها ومرارتها وشرورها وفضائلها .

في ظلال القصيدة :

إن نظرة في ايحاءات هذه التائية الرائدة في روعتها ، السامية في خيالها ، الدقيقة في معانيها ، الكريمة في ألفاظها ، البديعة في أشكالها ، الخلابة في ظلالها العريقة في تجاربها ، الرفيعة في جلالها ، ليدهش المرء حقاً من تلك المعاني البعيدة الغور والصور العجيبة والتي جاءت في ثناياها ولولا ثقتنا برواة التائية الثقات واعتقادنا جازمين من أنها للشنفري دماً ولحماً وروحاً ونصاً أو قل متناً وحاشية لنسبناها إلى شاعر إسلامي متأثر بتعاليم الإسلام .

وقد جاءت مفاهيم هذه التائية قريبة من الخلق الكريم الذي دعا إليه الدين القويم من ذلك قوله :

لقد اعجبتني لا سقوطاً قناعها　　إذا ما مشت ولا بذات تلفت

فإن في هذا البيت ظلالاً طيبة ودعوة للبذل والعطاء ومساعدة المحتاجين واكرام الملهوفين . وقد جاء الاسلام وحث المسلمين على التكاتف ومساعدة كل ذي عوز وحاجة . يقول الرسول ﷺ « من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

ومن المعاني الشريفة التي ألم بها الشنفري قوله :

تحل بمنجاة من اللوم بيتها　　إذا ما بيوت بالمذمة حلت

فإن هذا البيت يحمل في طياته السمات اللازمة لأن تكون السيدة في مكان عالٍ من السيادة وابتعاداً عن مواطن الشبهة وحرصاً على عدم الاحراج وفي بيته الذي يقول فيه :

إذا هو أمسى آب قرة عينه　　مآب السعيد لم يسل أين ظلت

فإن في هذا البيت ظلاً شريفاً من الظلال التي دعا إليها الخلق الاجتماعي الكريم من حيث ضرورة أن تحرص السيدة الكريمة على إسعاد زوجها وإدخال السرور والبهجة عليه عندما يرجع إلى بيته بعد كد وتعب وجهد وضنك ونجد في بيته الشهير الذائع :

أمشي على الأرض التـي لن تضرني　　لأنـكي قومـاً أو أصـادف حمتي

فإنه هنا يضع روحه على راحته ويجازف بكل مغـريات الحياة لينتقـم أشـد الانتقام من الذين أذلوه وأذاقوه الويلات فإما حياة شرف وكرامة أو موت زؤام يريحه من الأهوال والمتاعب والشقاء ولله در الشاعر الذي يقول :

سأحمـل روحـي على راحتي　　والقـى بهـا في مهـاوي الردى
فإمـا حياة تسر الصديق　　وإمـا ممات يغيـظ العـدى

وما أجمل قول الشنفري :

وأم عيال قد شهـدت تقوتهم　　إذا أطعمتهـم أوتحـت وأقلت

فإنه هنا يقول إن تابط شراً الذي كان بمثابة الأم في اطعامهم الطعام والحرص الشديد على عدم الاكثار منه ليدل على أنهم كانوا في أمكنة قاصية قد يكون مصيرهم الهلاك والفناء فقد كان تأبط شراً ذكياً في عدم الافراط في التوزيع للطعام وقد أكد رسول الاسلام أنه يكفي للانسان لقيات ليقمن صلبه .

وما أجمل قول الشنفري :

تخـاف علينـا العيل إن هي أكثرت　　ونحـن جياع أي آل تألـت

فإن فيه دعوة إلى الاعتدال في الطعام ولله در الشافعي في قوله :

ثـلاث هـن مهلـكة الأنام　　وداعية الصـحيح إلى السقام
دوام مدامـة ودوام وطء　　وادخـال الطعـام على الطعـام

وقد حثت الشريعة الاسلامية على ذلك فقال تعالى :

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا »

وما أجمل قول الشنفري في بيته :

اذا ما أتتنـي ميتتي لم أبالها　　ولـم تذر خالاتـي الدمـوع وعمتي

فإن الشنفري لا يبالي بتاتاً بالموت بل إنه يرحب بالموت وهو محروم من حنان

الأمومة ومن الخالات والعمات فقد خلق محروماً من الحنان والمودة من ذوي الأرحام .

وما أجمل قول الشنفري :

وإني لحلو إن أريدت حلاوتي ومر إذا نفس العزوف استمرت

فإن في ظلال هذا البيت ما يعتز الخلق الكريم به من حيث المعاملة بالمثل وفي الحديث الشريف ما أكد هذا المعنى (عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به » .

وقصارى القول فقد وجدنا في أشعار الشنفري من المعاني السامية والظلال القويمة ما لا ينكره الخلق الكريم من حيث الدعوة إلى إباء الضيم ومن حيث الاغتراب عن بلاد الذل والهوان ومن حيث الاعتدال في الطعام ومن حيث معاملة الزوجة الكريمة لزوجها .

تأتي هذه المعاني من شاعر عاش في الجاهلية والظلمات ولكن لاضير « فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي من أي وعاء خرجت » وقد برع بعض أهل الجاهلية في فن القول وبلغوا شأواً عظيماً من حيث الصدق في التعبير والأمانة في التصوير .

ونحن لا نخفي اعجابنا الشديد من تلك الايحاءات البعيدة في الحشمة للمرأة والشجاعة الفريدة للرجل والترفع عن الدنايا والدعوة الصريحة للاغتراب عن مواطن الأذى والسوء وليست هذه المعاني الرفيعة بالأمر الغريب على شاعر الإباء والشجاعة والقناعة ويكفي لامية الشنفري فخراً امتداح الرسول ﷺ إياها واعجاب عمر بن الخطاب بها وحثه المسلمين على أن يعلموا أبناءهم اللامية التي تعلمهم مكارم الأخلاق والفضائل الأدبية السامية .

فهرس بالموضوعـــات

الصفحة

تمهيد يتناول :

الفصـــل الأول

حياتـــه

الفصـــل الثاني

العوامل المؤثرة في شعره

الفصـــل الثالث

موضوعات شعره

الصفحة

الفصل الرابع

الخصائص الفنية في شعره

الفصل الخامس

دراسة فنية لشعره

ثبت بالمراجع والمصادر

	اسم الكتاب	صاحبه	المطبعة والعام
١ ـ	لسان العرب	ابن منظور المصري	بيروت
٢ ـ	القاموس المحيط	الفيروز أبادي	بيروت
٣ ـ	المعجم الوسيط	المجمع اللغوي بالقاهرة	القاهرة
٤ ـ	المؤتلف والمختلف	الآمدي	مطبعة القدس ـ القاهرة ١٣٥٤ هـ
٥ ـ	لباب الآداب	أسامة بن منقذ	الرحمانية بالقاهرة ١٩٣٥ م
٦ ـ	الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني	ط دار الكتب المصرية
٧ ـ	أغاني الأغاني	يوسف عون	بيروت ـ دار صادر
٨ ـ	فحولة الشعراء	الأصمعي	مخطوطة بدار الكتب رقم ٧٤٥
٩ ـ	شرح المفضليات	ابن الانباري	ط ـ بيروت الآباء اليسوعيين ١٩٢٠ م
١٠ ـ	كتاب الحماسة	البحتري	القاهرة ١٩٢٩
١١ ـ	الحماسة البصرية	علي فرج	نسختان بدار الكتب المصرية
١٢ ـ	خزانة الأدب	البغدادي	القاهرة تحقيق هارون
١٣ ـ	معجم ما استعجم	البكري	القاهرة ١٩٤٥ م
١٤ ـ	شرح حماسة أبي تمام	التبريزي	القاهرة
١٥ ـ	البيان والتبيين	الجاحظ	القاهرة ١٩٣٢
١٦ ـ	يتيمة الدهر	الثعالبي	القاهرة
١٧ ـ	ديوان حاتم الطائي	حاتم الطائي	ليدن ١٨٧٢
١٨ ـ	ديوان عروة ابن الورد	عروة بن الورد	القاهرة
١٩ ـ	مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون	المطبعة التجارية بالقاهرة
٢٠ ـ	جمهرة اللغة	ابن دريد	حيدر أباد الدكن ١٣٤٤ هـ
٢١ ـ	أعجب العجب في شرح لامية العرب	الزمخشري	ط . الجوائب ١٣٠٠ هـ
٢٢ ـ	شرح أشعار الهذليين	السكري	دار الكتب المصرية ١٩٤٨ م
٢٣ ـ	شرح ديوان عروة بن الورد	ابن السكيت	ط الجزائر ١٩٢٦ م
٢٤ ـ	كتاب الحماسة	ابن الشجري	حيدر أباد ١٣٥٤ هـ
٢٥ ـ	الطرائف الأدبية	ديوان الشنفري	لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧ م
٢٦ ـ	العقد الفريد	ابن عبد ربه	ط بيروت دار صادر

الكتاب	المؤلف	الناشر
٢٧ ـ الشواهد الكبرى	العينـي	القاهرة
٢٨ ـ الأمالي وذيله	القالي	دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م
٢٩ ـ الشعر والشعراء	ابن قتيبه	ليدن ١٩٠٢
٣٠ ـ عيون الأخبار	ابن قتيبة	دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م
٣١ ـ جمهرة أشعار العرب	أبو زيد القرشي	بولاق ١٣٠٨ هـ
٣٢ ـ منتهـى الطلـب في أشعـار العرب	ابن المبارك	مخطوطةبدار الكتب
٣٣ ـ الكامل في الأدب	أبو العباس المبرد	ليبزج عام ١٨٧٤ م
٣٤ ـ معجم الشعراء	المرزباني	القدسي القاهرة ١٣٥٤ هـ
٣٥ ـ مروج الذهب	المسعودي	المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ
٣٦ شرح حماسة أبي تمام	المعري	مخطوطة بدار الكتب
٣٧ ـ مجمع الأمثال	الميداني	بولاق ١٢٨٤ هـ
٣٨ ـ صفة جزيرة العرب	الهمذاني	ليدن ١٨٨٤ م
٣٩ ـ معجم البلدان	ياقوت الحموي	القاهرة ١٩٠٦ م
٤٠ ـ لامية العجم	الصفدي	دار صادر بيروت
٤١ ـ كتاب المغازي	الواقدي	كلكته ١٨٥٥ م
٤٢ ـ « السيرة النبوية »	ابن هشام	القاهرة
٤٣ ـ فجر الاسلام وضحاه وظهره	د . أحمد أمين	لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٥ م
٤٤ ـ من ثمار الأدب	د . سرحان	القاهرة
٤٥ ـ تاريخ الشعر السياسي	أحمد الشايب	ط القاهرة ١٩٤٥ م
٤٦ ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي	بيت المقدس
٤٧ ـ تاريخ الأدب العربي	الرافعي	القاهرة
٤٨ ـ تاريخ آداب اللغة العربية	جُرجي زيدان	
٤٩ ـ فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين	الانجلو المصرية	
٥٠ ـ شعر الحرب عند المتنبي	د . محمود أبو ناجي	دار الشروق جدة
٥١ ـ عمر بن أبي ربيعة	د . محمود أبو ناجي	دار الشروق بجدة
٥٢ ـ مصادر الشعر الجاهلي	د . ناصر الدين الأسد	دار المعارف بمصر
٥٣ ـ الحياة الأدبية من الشعر الجاهلي	د . أحمد الحوفي	
٥٤ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام	د . جواد علي	بغداد